الفصل الثالث

البيئة فى الواقع الإيمانى

الفصل الثالث

أولاً : البيئة فى الواقع الإيمانى :

وبعد أن وَقَفْنَا بك ـ أخى القارئ ـ على جانب من المعلومات البيئية حَسْبَما يصورها الفكر البشرى ، مع إبْراز بعض التعليقات الدينية المَيَسَّرَة بَحسْب ما يقتضيه السِّيَاق ـ فإننا نودُّ أن نضع بين يديك الجانب المشرق من الحديث عن البيئة فى رحاب عقيدة التوحيد ؛ ذلك لأن تلك العقيدة تجعل الجزاءَ الأخروىَّ امتداداً للعمل الدنيوى وثمرة من ثمراته ، يقول الله تعالى :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) ويقول أيضاً : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) وذلك حتى يتسنى من خلال ذلك إبراز الجوانب الوضيئة والمضيئة للكيان البيئى فى جو من الواقع الإيمانى المُحَسِّ المعاش ، فأهمية التصوير الإسلامى للبيئة تكمنُ فى قدسية مصدره ، وثبات المبادئ التى يرْتَكز عليها ، فَضْلاً عن ارتباطها بعقيدة المسلم وتكوينه الوجدانى ، فالممارسات البيئية الصحيحة كإماطة الأذى والقذَر عن الطريق ونحوه تعتبر ضرباً من ضروب التقرب إلى الله يستوجب فاعلها الثواب باعتبارها شعبة من

---

(١) سورة القصص : ٧٧

(٢) سورة غافر : ٤٠

شعب الإيمان بالله ، عن أبى ذر قال : قال النبى ـ ﷺ «عُرِضَت عَلَىَّ أعمال أُمَّتى حسنُها وسيئُها ، فوجدتُ فى محاسن أعمالها الأَذىَ يماَط عن الطريق ، ووجدت فى مساوئ أعمالها النُّخامة تكون فى المسجد لاتدْفن [١].

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ: « إنه خلقَ كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل ، فمن كبرَّ الله ، وحَمِدَ اللهَ، وهلّل الله ، وسبَّح الله ، واستغفر الله ، وعَزلَ حجرا عن طريق الناس أوشوكةً أوعظْماً عن طريق الناس ، أو أَمَرَ بمعروف أو نَهَى عن منكر ، عدد الستين والثلاثمائة ، فإنه يْمسى يومئذ وقد زَحزَح نفسه عن النار» [٢]

وعن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « الإيمان بضْع وسبعون أوبضع وستون شعبة : فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان » [٣]، وعن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « لقد رأيتُ رجلا يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » [٤]وفى رواية للبخارى ومسلم : «بينما رجل يمشى بطريق وجد غصنَ شوك على الطريق ، فأخَّره فشكر الله له ، فغفر له» . كما يشتمل هذا المنهج على أساس معنوى يزداد عمقاً فى وجدان المؤمن بنمو عقيدته ، معتمداً على نظافة القلب والضمير والوجدان من سخائم الغل

---

(١) رواه مسلم : م (٥٥٣) .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

والحقد والحسد ، فيحُوطُ تصرفات البشر بسياج متين من مكارم الأخلاق ، ويعصمهم من التردى فى حمأة الرذائل ، وإلا أصبح الناس كمن يحرث فى البحر ، أويطلب من الماء زُبْداً .

يقول الدكتور درويش مصطفى الفار ، عالم الجيولوجيا المصرى :كل ما أصاب البيئة براً وبحراً وجواً إنما نجم عن مرض أخلاقى ، وسُعار أصاب الناس الذين يسمَّون اليوم المتحضرين والمتقدمين تقَنيا وعلميا ، ونَهَم حطَّ فى مجتمعاتهم مكان كل عقيدة أو قيمة أو خلق سَوِىٍّ كريم ، إذ تنبنى فلسفة الحياة عندهم على النجاح وطرائقه فى تحصيل الربح المادى ، للإنفاق منه على الرفاهية ، وضروب الاستمتاع باللذائذ البهيمية ، ومن هنا لابأس أن تتشبع لحوم الأسماك فى محيطاتهم وشواطئهم بالزئبق والكادميوم والرصاص وغيرها من السموم القاتلة ، ثم لا بأس أيضاً بأن يصدروها إلى بنى آدم فى العالم الثالث ، ولابأس أن يبحثوا عن مهربين و«مافيا » لتنقل نفايات المفاعلات الذرية أيضاً إلى بلاد ذلك العالم التعس ، دونما وخزة من ضمير ، أوحسبان لجنة أونار ، وإن التقدم العلمى مطلوب ، والبحث فى آفاق السماوات والأرض والبحار ، وتيسيرحياة الناس مطلوب حتى يقضى الله فى أمر هذه الأرض ومن عليها ، بل إن ذلك كله فرض كفاية على البشر ، ولكن فى إطار من الأخلاق يحتم مراعاة عدم تلوث البيئة [1] .

---

(١)جريدة الراية القطرية فى ١٩٩٢/٦/١٦م.

ثانيا : التوصيف الحقيقى لمشاكل البيئة :

إذا كانت البيئة تُعانى من مشكلات جسام ، مانرى من مشكلة إلاهى أكْبرُ من أخْتها ، وكل منها يؤدى إلى تقْويض أركان البيئة ، فضْلاً عن كونها تقرب نهايتها المحتومة ، فإن الأسباب الحقيقة التى تكمن وراء تلك المشكلات تتمثل فى ظلم الإنسان وجوْره ، وفَسَاده وإفْسَاده ، وفسوقه عن أَمرْ ربه ، وإسْرافه وتبْذيره ، والقرآن الكريم يعطينا التوصيف الحقيقى لهذه المشاكل ، يقول الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) ويقول ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢) ويقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾(٣) ويقول : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ (٤) ويقول :

﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾(٥)

ويقول : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (٦) ويقول : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾(٧)

---

(١) سورة الروم من الآية : ٤١ .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٨٥ .

(٣) سورة القصص، من الآية :٥٩

(٤) سورة يونس من الآية : ١٣

(٥) سورة آل عمران ، من الآية : ١١٧

(٦) سورة الإسراء الآية : ١٦ .

(٧) سورة الأعراف ، من الآية : ٣٣ .

ومن هذه النصوص وغيرها يتضح لنا التوصيف الدقيق لكُيْنُونة الفساد فى دُنْيَا الناس ، وأَنَّ العلاجَ الناجعَ لأى خلل إنما يكون بكفِّ الأذى ورَفع الأَيدى عن النواميس الطبيعية التى أَوْدَعَهَا الله فى الكون ، وأنه لَنْ تستطيع التِّقْنية المعاصرة ولاالثَّراء العَريض ، لن يستطيع كل هذا أو غيره توفير سُبُل التَّغلُّب على مشكلات الإنسان جميعاً بما فيها مشكلات البيئة مالم تَصْدُرْ هذه التِّقْنيات عن وجْهَة نظر إسلامية تحترم السُّنن الكونية التى أَوْدَعَهَا الله فى خلقه ، وتتفاعل وتتعامل مع مقومات البيئة على أنها نعَم تستوجبُ شكر المنعم، ولن يكون ذلك أولاً وأخيراً إلابإيمان حقيقى بالله تنقشع بفضله هذه الظلمات .

ثالثاً : مفهوم البيئة فى التصوير الإيمانى :

إن مفهوم البيئة فى التصوير الإيمانى يعْنى جُملة الأشياء التى تحيط بالإنسان ، بدءاً من الأرض التى تُقله ، وصعوداً إلى السماء التى تظله ، ومابينهما من العوامل والمؤثرات المختلفة ، كما أنها تتعمق داخل النفس البشرية تَضبط ما فيها ، مُسْتَعْلية على غَرَائز الشَّرِّ،بل وساعية إلى تهذيبها ؛ وذلك لأن شريعة التوحيد لاتقف بالإنسان عند حدود الماديات وشكلها ، وإنما تجعلها وسيلةً لبلوغ الهدف الأَسْمى ، والمقْصد الأسنى ، ألاوهو تزكية النفس وتطهيرها ، وإعادة صياغتها على نحوٍ خالٍ من العقد والانفصامات ، وهو ما تنفرد به الحنيفية السمحة عَمَّا سِوَاها من شرائع البشر وقوانينهم الوضعية ، التى إنْ سيطرت حيناً على الجوارح ، فلا سُلْطانَ لها البتة على الجوَانح ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (١)

---

(١) سورة الشمس : ٩و١٠

ثم إن اتباع هذا المنهج ليصل بالإنسان إلى حدّ الاتزان والاعتدال من منطلق قوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) . فلا يستسلم المرء فى ظلها للأسى والأسف على غرض قد فات تحقيقه،فضلاً عن استبداد الفرح به عند تحقيق أهدافه وأغراضه، ، وذلك لأن خطر الاستغراق فى الأفراح لا يقل شأناً عن تحطيم الآمال والاستغراق فى الأسى على مافات .

رابعاً : البيئة كيان حى :

تشكل البيئة فى الواقع الإيمانى المحس كياناً حيًا نابضاً ، له من الأحاسيس والانفعالات ما يتصل إلى حد الفرح برؤية عباد الله الصالحين ، أو الحزن والبكاء عند فقدهم ، لما اعتادته منهم من عمل الخير فيها ، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (٢)، كما أنها لاتأبه بفقد الطالحين أو هلاكهم ، لما يرتكبونه فيها من سَفَهٍ وحَمَاقةٍ ، فليست الأرض مجرد جرْم يطؤه النَّاس بأقدامهم ، ويفعلون على ظهرها ما يشاءون ، وليست السماء بأَجْرامها ثُريَّاتٍ ترْقُبنا فى عَلْيائها غيرَ عَابئة بنا ، كلاَّ فالنُّصوص متوافرة ومتضافرة على أنها كيانات لها حس وانفعال خاص ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (٣) **ويقول** : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (٤)،

---

(١) سورة الحديد ، الآية :٢٣

(٢) سورة الفرقان ، من الآية : ٦٣.

(٣) سورة الإسراء ، من الآية :٤٤ .

(٤) سورة سبأ ، من الآية :١٠ .

ويقول : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾[1] ويقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ * يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2] ويقول : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[3]، ويقول : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[4] .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « لايسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا حجر ولا مَدَر ولا شئ إلا شهد له يوم القيامة »[5]

وعن جابر بن سمُرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « إنىٌ لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىٌ قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن »[6]

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : أتَى ابنَ عباس ـ رضى الله عنهما ـ رجلٌ فقال : يا أبا العباس ، أرأيت قوله تعالى : « فمابكت عليهم السماء والأرض » فهل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم ، إنه

---

(١) سورة الدخان، من الآية : ٢٩ .

(٢) سورة النور من الاية: ٤٣و٤٤ .

(٣) سورة الحج ، من الآية : ٥.

(٤) سورة الأنبياء، من الآية : ٧٩ .

(٥) رواه ابن ماجه ومالك فى الموطأ

(٦) رواه مسلم .

ليس أحد من الخلائق إلاوله باب فى السماء ، منه ينزل رزقه ، وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغْلق بابه فى السماء الذى كان يصعد فيه عمله ، وينزل منه رزقه ، بكى عليه ، وإذا فقده مصلاَّه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله عزوجل فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة ،ولم يكن يصعد إلى الله ـ عزوجل ـ منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض [1] .

وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبْكيان على المؤمن أربعين صباحاً ، قال أبو يحيى : فعجبت من قوله ، فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها كَدَوِىِّ النحل ؟ .

وفى معنى بكاء السماء والأرض أقوال أظهرها كما قال القرطبى : أنه كالبكاء الذى نعرفه .

خامساً : مكونات البيئة فى الواقع الإيمانى :

تتكون البيئة فى الواقع الإيمانى من شقين ، هما :

(أ) المكونات المادية :

وتشمل جميع المكونات المادية الحية وغير الحية مما سبقت الإشارة إليه ، كالأرض والماء والهواء والضياء والنبات والحيوان ، وسنكتفى هنا بإيراد بعض النصوص الخاصة بكل عنصر تحاشياً للتكرار ؛ لنرى قدرةَ الله وحده فى تَسْخير وتسْيير هذه المواد ، والأسلوب الأمثل للاستفادة منها ، وذلك على النحو التالى :

---

(١) تفسير ابن كثير ١٤٢/٤ .

١ – الأرض

* علاقتها بالسماء :

ـ من حيث التكوين :

يقول الله ـ تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ (١)

أى ألم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السماوات والأرض كانتا شيئا واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض كما هى ؟ قال الحسن وقتادة : كانت السماوات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء ، وقال ابن عباس : كانت السماوات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات (٢) .

وتقرر هذه الآية الحقيقة العلمية المتفق عليها ، ألا وهى أن السماوات والأرض كانتا متصلتين ، فالرَّتق الضَّم ، والفتق الانفصال ، وآخر ما وصل إليه البحث العلمى فى هذا الصدد هو أن هذا الكون قبل أن يأخذ صورته الحالية كان حشداً هائلاً متجمعاً فى أبسط صورة لقوى الذرات المتصلة الواقعة تحت ضغط هائل لايكاد يتصوره العقل ، وأن جميع أجرام السماء اليوم ومحتوياتها بما فيها المجموعة الشمسة والأرض كانت مكدسة تكديساً شديداً فى كرة لايزيد نصف قطرها على ثلاثة ملايين من الأميال ، وهو قوله تعالى :

« ففتقناهما» إشارة لما حدث لذلك السائل النـووى الأول من انفـجار عظيم

---

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠

(٢) انظر صفوة التفاسير للصابونى جـ ٢ ص ٢٦١ .

انتشرت بسببه مادة الكون فيما حولها من أجواء ، انتهت بتكوين مختلف أجرام السماء المنفصلة ، بما فيها المجموعة الشمسية والأرض (١).

ويقول الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٢) أى وجعلنا السماء فوقهم كالسَّقْفِ المرفوع ، وحفظناها من أن تقع بما فيها عليهم ، ومع هذا فهم منصرفون عن النظر والاعتبار ، فتقرر الآية أن السماء وما فيها من أجرام محفوظة بكيانها لا خلل فيها ومحفوظة كذلك من أن تقع على الأرض ، وكل ذلك الحفظ بأسباب غير ظاهرة لنا وإن كنا نرى آثارها ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (٣) ويقول أيضاً : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٤).

والسماء كل ما علاك ، تبدأ بالغلاف الهوائى الذى يحمى أهل الأرض من كثير من أهوال الفضاء التى لا تستقيم معها الحياة بحال ، مثل الشهب والنيازك والأشعة الكونية ، فالغلاف الهوائى الذى تحتفظ به الأرض بقوة الجاذبية ، ولاسبيل إلى فقده فى خضم الفناء المتناهى ، وفوق الغلاف الهوائى أجرام السماء على أبعاد متناهية ومحتلفة ، تحتفظ بنظام دورانها وكيانها منذ القدم ، فالغلاف الجوى وسائر الأجرام السماوية التى تشاهد بمساقطها على القبة السماوية فى أنظارنا ، تظهر لنا كأنها متسعة اتساعاً كبيراً أفقيًا ، فى حين

---

(١) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٤٧٦

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٢ .

(٣) سورة لقمان ، من الآية : ١٠ .

(٤) سورة الرعد ، من الآية : ٢ .

يظهر الاتساع الرأسى أقل بكثير من الاتساع الأفقى ، تتمثل هذه الظاهرة عند مشاهدة قرص الشمس أثناء الشروق أو الغروب حيث يظهر أكبر مما هو عليه عندما تكون الشمس فى سَمْت الرأس ، ومصدر ذلك هو الخداع البصرى الذى يجعلنا نقدر المسافات الأفقية بدقة أكثر من المسافات الرأسية[1] .

*** من حيث استمرارية الحياة :**

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[2] ويقول ـ جلَّ ذكْره :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3] ويقول : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[4] ويقول : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[5] .

فعناصر التربة ومركباتها الميتة والساكنة عندما ينزل عليها ماء المطر تذوب فيه ، فيسهل وصولها إلى بذور النباتات وجذورها حيث تتحول إلى خلايا وأنسجة وأعضاء حية ، وبذلك تبدو حية ويزيد حجمها بما يتخللها ويعلوها من نبات ، وكل ذلك يعتبر غذاء للحيوان ، فسرعان ما تدب الحياة على ظهر

---

(١) المنتخب فى تفسير القرآن (مرجع سابق)

(٢) سورة ق : ٩-١١

(٣) سورة الأنبياء : ٣٠

(٤) سورة الحج ، من الآية : ٥

(٥) سورة فصلت : ٣٩

الأرض ، ولا شك أن استمرارية الحياة متوقفة على ما تجود به السماء من ماء لأهل الأرض .

* **شكل الأرض :**

يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾[1] ويقول : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[2] فالأرض فى شكلها ليست كاملة الاستدارة ، ولم يتمكن العلماء من قياس أبعادها بالدقة إلامنذ ٢٥٠ سنة تقريباً ، عندما قامت بعثة من المتخصصين فى علم المساحة بقياس المسافة الطولية بين عرضين متساويين فى الطول تفصلهما درجة واحدة قوسية ، وذلك فى مختلف أنحاء العالم ، وتبين من هذه القياسات أن نصف القطر الاستوائى يزيد على نصف القطر القطبى بمقدار ٥و٢١ كليومتر تقريباً ، أى أن الأرض أنقصت من أطرافها ممثلة فى القطبين ، ومن المعلوم أن شكل الأرض وأبعادها هو الأساس فى رسم الخرائط [3] . ويقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾[4] ويقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[5] .

فالأرض ممهدة مستوية بقدرة الله ـ تعالى ـ مذللة لعباده ، فلا تتأبّى عليهم ولا تتوعّر .

---

(١) سورة النازعات : ٣٠

(٢) سورة الإنبياء ، من الآية : ٤٤

(٣) المنتحب فى تفسير القرآن الكريم ص ٤٧٩ .

(٤) سورة طه ، من الآية : ٥٣ .

(٥) سورة الملك : ١٥ .

* الأرض والجبال :

يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ (١) ويقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ (٢) ويقول جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) فالله سبحانه قد جعل فى الأرض جبالًا ثوابت لئلا تضطرب الأرض بأهلها أثناء دورانها ، كما جعل فيها طرقاً فسيحة ومسالك واسعة تعينهم على الوصول إلى أغراض حياتهم ، ونجد بهذا الخصوص تعليقاً علمياً قيماً فى هامش المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، عند تفسير هذه الآية : « لما كان باطن الأرض منصهرا سائلاً ، فلوفرضنا أن الجبال وضعت فى بعض نواحى الكرة الأرضية كأنها صخور هائلة مرتفعة فإن ثقلها قد يؤدى بالقشرة الأرضية أن تميد أو تنثنى أو تتصدع ، لذلك جعل ـ جل شأنه ـ الجبال رواسى : أى ذات جذور ممتدة فى داخل القشرة الأرضية إلى أعماق كبيرة تتناسب مع ارتفاعها ، فهى كأنها أوتاد ، كما جعل كثافة هذه الارتفاعات والجذور أقل من كثافة القشرة المحيطة بها ، كل ذلك حتى يتوزع الضغط على القشرة العميقة بحيث يكون متساوياً فى جميع أنحائها،فلا تميد أو تتصدع ؛ لأن التوزيع التماثلى للأثقال على سطح كروى لا يكاد يُحْدث تأثيراً يذكر ، وقد أثبت العلم الحديث أن توزيع اليابس والماء على الأرض ووجود سلاسل الجبال عليها مما يحقق الوضع الذى عليه الأرض ،

---

(١) سورة ق ,من الآية : ٧ .

(٢) سورة الرعد، من الآية : ٣

(٣) سورة الأنبياء : ٣١

وقد ثبت أن الجبال الثقيلة دائما أسفلها مواد هشة وخفيفة ، وأن المواد الثقيلة الوزن توجد تحت ماء المحيطات ، وبذلك تتوزع الأوزان على مختلف الكرة الأرضية ، وهذا التوزيع الذى أساسه الجبال دائماً قصد به حفظ توازن الكرة الأرضية ، ولما ارتفعت الجبال حدثت السهول والأودية ، والممرات بين الجبال وشواطئ البحار والمحيطات والهضبات ، وكانت سبُلا وطرقا » « ومن قدرة الله وحكمته إحداث هذا التوازن وجعله ثابتاً عن طريق انسياب المواد الأرضية المكونة للقشرة الرقيقة تحت الطبقات السطحية ، وذلك من الأثقل إلى المكان الأقل ثقلاً » .

كما يذكرنا القرآن بأن الله ـ تعالى ـ إذا أراد لهذه الدنيا زوالاً يخل هذا التوازن بنسف هذه الجبال وتسييرها، وجعلها كالعهْن المنفوش ، تطير فى الفضاء كالهباء ، ويقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ (١) ويقول أيضاً : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٢) ويقول : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ (٣) .

فيوم القيامة تأخذ الجبال هذه الصور الهشة المتاطيرة تاركة أماكنها من الأرض ملساء مستوية ، لا تبصر فيها ارتفاعاً ولا انخفاضاً ، كانها لم تكن معمورة من قبل .

---

(١) سورة طه : ١٠٥-١٠٧

(٢) سورة التكوير : ٣

(٣) سورة القارعة : ٤و٥

* اختلاف ألوان البقاع :

ويقول الله ـ تعالى : ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) ويقول أيضاً : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢)

فمن المعروف أن للتربة والبيئة أثراً قوياً على صفات النبات الطبيعية والكيمياوية ، فمنه الأبيض والأحمر والأصفر والأسود ، ومنه الحلو والحامض حتى وإن زرعت جميعها فى بُقعة واحدة وسُقيت بماء واحد ، فالأحياء المختلفة تحتاج إلى عناصر معينة لغذائها ، وبالتالى تتأثر بها ألوانها ، ولعل سر إعجاز هذه الحقائق القرآنية يرجع إلى إخراج ثمرات مختلفة الألوان بالرغم من أن شجرها يُروَى بماءٍ واحد ، وكذلك خلق جبال مختلفة الألوان مع أن أصلها واحد ، هى مادة متجانسة التركيب ، أصل معينها باطن الأرض ، ويسميها الجيولوجيون « الصهارة والمجاجما » وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق فى أماكن مختلفة من الأرض ، وعلى أعماق مختلفة من السطح يعترى تركيبها الاختلاف ، فتتصلب آخر الأمر فى كتل أو جبال مختلفة المادة والألوان ، فالأصل واحد والفروع متباينة ، وفى كل هذا نفع لبنى آدم .

(١) سورة الرعد : ٤ .

(٢) سورة فاطر : ٢٧و٢٨

وكذلك اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام لايظهر فى النطف التى تنشأ منها ، وإنما هى دقائق وأسرار ، فالخصائص الوراثية تحافظ على فطرة الأشياء واستمرارها ، وأحق الناس بخشية الله العلماء الذين أوقفهم الله على هذه الأسرار .

* **اختلاف خواص بقاع الأرض :**

وإذا كانت الاختلافات اللونية تمثل مظهراً من مظاهر قدرة الله فى الأرض ، وآية تدل على وحدانيته وتفرده فى كل شىء ، فهناك مظهر آخر من مظاهرها لا يقل فى مجال الإعجاز عن سابقه ، ألا وهو اختلاف خواص تلك البقاع من حيث صلاحيتها للإنماء والإنبات ، ونستأنس لذلك بحديث رسول الله ـ ﷺ فضلاً عن الآيات المتقدمة ـ عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ـ ﷺ :

« إن مثل مابعثنى الله به من الهدى والعِلْم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فَشَربوا منها وسقوْا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان (أرض لانبات فيها) لاتمسك ماءً ولاتُنبتُ كلأً فذلك مثلُ من فَقُه فى دين الله ، ونَفَعَهُ بما بعثنى الله به، فَعَلِم وعلَّم، ومثلُ من لم يرفعْ بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلتُ به » (١) .

---

(١) متفق عليه

٢ـ الماء :

الماء هو السائل الذى ينهمر من شآبيب رحمة الله ، فتفيض به الأنهار والبحار والبحيرات والمحيطات والعيون ، ونظراً لأهميته فى الحياة لكل شيء خلقاً وإصلاحاً فإن الشاعر قد عرفّه تعريفاً دقيقاً حتى قيل عنه : عرّف الماء بعد الجَهْد بالماء .

وقد ورد ذكر الماء فى القرآن بمعناه الذى نعرفه ٥٩ مرة ، كما ورد فى خمسة مواضع بمعنى ماء التناسل أو النطفة ، ونحن نورد الأخيرة هنا لسهولة حصرها فيما يلى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (١) .

ويقول عزّمن قائل : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾(٣) .

ويقول : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ... ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الفرقان : ٥٤ .

(٢) سورة السجدة : ٧و٨

(٣) سورة المرسلات : ٢٠و٢١

(٤) سورة الطارق : ٥و٦

(٥) سورة النور، من الآية : ٤٥

* **أهمية الماء للحياة :**

يقول الله تعالى : ﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) . وبرجوعنا إلى المنتحب فى تفسير القرآن الكريم لهذه الآية وجدنا فى هامشه تعليقا يقول : « فقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام فى تركيب مادتها ، وهى وحدة البناء فى تركيب الكائن الحى نباتاً كان أو حيواناً ، كما أثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التى تتم داخل أجسام الأحياء ، فهو (الماء) إما وسط ، أو عامل مساعد أو داخل فى التفاعل ، أو ناتج عنه » .

وتأسيساً على ماسبق نستطيع أن نلمح إلى أبرز فوائد الماء :

ـ الماء أساس الحياة : إننا لا نستطيع أن نتصور حياة بدون ماء ، وإنْ أمكن وجود حياة بدون هواء ، فلا يوجد بين سائر الأحياء كائن واحد دَقَّ أوكبر يستطيع الحياة بدون ماء ، فى الوقت الذى يمكننا فيه أن نرى بعض الأحياء تعيش بدون هواء ويطلق عليها : كائنات لاهوائية ، كبعض أنواع البكتريا ؛ ولذلك نجد أن نسبة الماء فى أجسام الأحياء النشطه (أى غير الساكنة) تتجاوز ٩٠ ٪ ، فهو نهر الحياة الدافق فى العروق ، يحمل الغذاء والهواء ، مُخلصاً إياه من نفاياته الضارة ، نَتْحاً فى النبات ، بَوْلاً وعرقا وبخاراً فى هواء الزفير للإنسان والحيوان .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٠

ـ إن جَذْوَةَ الحياة من الماء : نحن نحتاج إلى الأكسجين لكى يطلق الطاقة الكامنة فى غذائنا ونحصل على هذا العنصر من الهواء الجوى ، وبمعرفة أسْرار عملية البناء الضوئى فإن النباتات الخضراء كما تخلصنا من ثانى أكسيد الكربون الذى تزفره الكائنات الحية ، وتمنحنا إياه فى صورة مواد عضوية تبنى أجسامنا وتقوم حياتنا ، إنها تطلق من الماء غاز الأكسجين ليعوض الأحياء عما تستهلكه من الغاز أثناء عملية التنفس .

ـ الماء هو الحاضِنُ الأوَّلُ للحياة : إن بيئة البحار هى البيئة الحانية على الأحياء ، فهى أكثر ثباتاً من بيئات اليابس ، ويعتقد العلماء أن الحياة أوَّل مادبَّت عِلىَ الأرض دبَّتْ فى الماء ، ونحن نميل إلى ذلك ، ونَسْتأْنِسُ لَهُ بآية الفَتْق والرَّتْقْ ، حيث أعقبَ هذه الظاهرة ذكر الماء وأنه أصل الحياة ، كما نستأنس له بقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(١).

فقد أورد الصابونى فى تفسيرها : وكان العرش قبل خلق السماوات والأرض على الماء ، وأورد قول الزمخشرى فى كشَّافه : أى ما كان تحته (العرش) خلق ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض(٢).

---

(١)سورة هود : ٧

(٢) صفوة التفاسير، ح٢ ص٨

وبالجملة فقصة الماء مع الإنسان قصة طويلة ، تبدأ منذ كان نطفةً سابحة فى الماء . ثم جنينا محفوظاً فى قَراره المكين من كل أذىً فى قرْبة من الماء ، تصلُه أسبابُ الحياة كُلها من أمِّه فى الحَبْل السرِّى مَحْمُولة معَ الماء ، ثم وليداً يَرْشُف أوَّلَ غَذاء له من ثَدْى أمه لبناً سائغاً قوامه الماء ، بل إن الماء مع الإنسان حتَّى فى آلامه وأحْزَانه يسْكبهُ دُمُوعاً تَغْسل أشجانه ، فلا عَجَبَ أن يستطيع الإنسان الصَّبْرَ على الجوع أيَّاماً كثيرةً ولكنه لا يتحمل الظَّمأ إلاَّ يوماً واحداً أو أربعة أيام (١) .

مصادر الماء :

١ – المطر : يقول الله تعالى – : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾(٢).

ويقول جل ذكره : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣)

ويقول أيضاً : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ (٤)

---

(١) عالم المعرفة ، مجلد ١٩٨٢/٤ ص ٨١

(٢) سورة المؤمنون : ١٨

(٣) سورة الأنعام : ٩٩ .

(٤) سورة الأنفال ، من الآية : ١١

ويقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

ويقول الله تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ (٢).

ونحن نرى من جملة هذه الآيات وغيرها أن ماء المطر يأتينا من جهة السحاب ، وأن هناك قدرة عجيبة ونظاماً دقيقاً لتكوين السحاب وتيسير دوران الماء فى هذا الكون ، فعندما يتصاعد بخار الماء من أسطح البحار والمحيطات يتكثف على شكل قطيرات ماء دقيقة لاتلبث أن تتكون على هيئة وحدات صغيرة من السحب ، ثم تنضم أعداد منها بعضها إلى بعض مكونة ما يعرف بالسُّحب الرُّكامية ، وهى سحب يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل متوسط أعماقها فى الاتجاه الرأسى من ١٥ إلى ٢٠ كليومتراً ثم بعد ذلك تأتى الرياح فتقرب هذا السحاب بعضه من بعض فيحدث تفريغ كهربى لكل سحابتين تحملان نوعين مختلفين من الشحنة ، فيحدث البرق فتهطل المياه مطراً طيباً على الأرض ، فتحيا ويحيا عليها الأحياء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ

---

(١) سورة النحل : ١٠و١١ .

(٢) سورة النور:٤٣ .

بِخَٰزِنِينَ﴾[1]

فتنزل الأمطار على اليابس إلى الأنهار ، فالبحار ، فالمحيطات . ثم يتصاعد بخار الماء ويتعاقب نزول المطر ، وهكذا إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

٢ – المياه الجوفية : يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾[2]. ويقول عز من قائل: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[3].

فمن رحمة الله سبحانه أن جَعَلَ للأرض قدرة على الاحتفاظ بجانب من ماء المطر فى باطنها ، فضلاً عما تحفظه فى منخفضات ـ هى البحار والمحيطات ـ أى أن إسكان الماء فى الأرض إمَّا أن يكون على سطحها أو فى باطنها ، فالمياه الجوفية تتسرب إلى الأرض ثم تستقر فى أحواض تركيبية شاسعة، يمكن استغلالها جيداً كتلك الأحواض التى توجد فى الصحراء الغربية بليبيا ، وقد تم استغلالها بإنشاء النهر الأعظم ، كما قد تنفجر هذه المياه عيوناً أو تتسرب إلى مناطق أخرى عبر مسام التربة فتحييها بعد موتها ، يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الحجر :٢١, ٢٢.

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٧٤

(٣) سورة الرعد : ١٧

(٤) سورة السجدة : ٢٧

* نوع المياه وارتباطها بالحياة :

بالرغم من تنوع الماء إلى عذب وملح فإن كُلاً منهما يؤدى للأحياء دورا كبيراً عظيم النفع جليل الفائدة ، ويتضح لنا هذا الدور فى ضوء النصوص التالية : يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١) ويقول أيضا : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ (٢).

ويقول ـ جل شأنه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (٣).

ويقول : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ (٤).

فالماء العذب يستخدم فى الشرب وري الأراضى الزراعية وسائر أغراض الحياة ، كما يشترك مع الماء الملح فى استخراج الأسماك التى تستخدم فى الغذاء واستخراج الحلى ، وتسيير السفن ، وحديثاً أمكن تحلية مياه البحر لاستخدامها فى أغراض الحياة المختلفة .

---

(١) سورة فاطر : ١٢

(٢) سورة الأنفال ، من الآية : ١١

(٣) سورة الفرقان : ٥٣

(٤) سورة الرحمن : ١٩و٢٠

* تلازم السحب والمطر والرياح :

هناك تلازم بين كلٌ من المطر والسحاب والرياح ، فالرياح هى التى تعمل على تجميع الواحدات الصغيرة من السجاب وتركم بعضها إلى بعض،ثم تُقلُّهَا إلى حيث شاء الله فتفرغ حمولتها من المياه العذبة ، فتحيا بها الأرض الميتة ويرتوى بها الناس والأحياء ، وتتضح لنا تلك العلاقة من خلال استعراضنا للنصوص التالية :

* يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾(١) ويقول : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾(٢) ، ويقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٣). ويقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾(٤).

ويقول : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة الروم ، من الآية : ٤٦

(٢) سورة فاطر : ٩ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٧

(٤) سورة الفرقان : ٤٨و٤٩

(٥) سورة الروم : ٤٨ .

* بالشكر تدوم النعم :

إن كل ما أنعم الله به على العبد من المكونات الرئيسية للبيئة كالأرض والماء والهواء يستوجب مزيدَ الشكر طمعاً فى استدامته ، وقد أخطأ الجاحدون عندما ظنوا هذه حقوقاً مكتسبة ، فأخذوا يعبثون بها ، فضلاً عن كفرهم بخالقها ، ومن هنا فقد جاءت آيات القرآن الكريم توضح لنا تلك القضية ، وأن الذى أجرى هذه النعم هو وحده الذى يستطيع حبسها ومنعها ، ولك أن تمعن النظر معى فى النصوص الكريمة التالية :

يقول الله تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ (١) ويقول : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾(٢) ويقول : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾(٤) إلى غير هذا من النصوص الكثيرة التى توضح لنا أن أسرار التردى البيئى تكمن وراء جحود هذه النعم .

---

(١) سورة الملك : ١٦و١٧

(٢) سور الواقعة : ٦٨ ـ ٧٠

(٣) سورة الملك : ٢١

(٤) سورة الملك : ٣٠

* النيل والفرات فى السُّنةً :

عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « ثم رُفعْتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال جبريل : هذه سِدْرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران، فقلت ماهذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات»(١) .

إن سدرة المنتهى شجرة قائمة فى المكان الذى ينتهى إليه ، وقد بينها النبى ـ ﷺ ـ بقوله : إليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى مايهبط فيقبض منها « كما جاء فى رواية مسلم . وحتى لا يختلط الأمر على الأذهان ، فإنه إذا كان النيل ينبع من بحيرات وهضبات أفريقيا ، والفرات ينبع من جبال أرمينيا ، فإن لهما وجودات متعددة ، تبدأ من النبع العام فى سدرة المنتهى ، وتنتهى إلى منبعيهما فى الجبال والبحيرات حيث يراهما الناس، ومما يؤكد هذا أن النبى ـ ﷺ ـ قد رآهما فى السماء الأولى ليلة الإسراء والمعراج ، فقد روى البخارى ومسلم من طريق شريك بن نمرة ، أن النبى ـ ﷺ ـ رأى فى السماء الأولى نهرين يطردان فسأل عنهما فقال : « هذان النيل والفرات عنصرهما » ، وتلك مرتبة من مراتب تنزلا تهما الوجودية .

ولقد رأى النبى ذلك على صورة مثالية ، كما ضربت له الأمثال فى طريق الإسراء لكثير من الأشياء الأخرى ، ولعل السر فى أن الله قد أراه هذين دون غيرهما هو أنهما المركزان اللذان تركزت فيهما قوة الإسلام ، ومنهما انتشرت الدعوة إلى سائر الأقطار والشعوب ، فرؤيته لهما بشارة كبرى بأن

---

(١) رواه البخارى .

رسالته ستغمر الوجود وتعم سائر الممالك والشعوب ، وقد كان النبى فى حاجة إلى هذه البشريات التى يثبت الله بها فؤاده ، ويكشف له بها عن كثير من حقائق الحياة .

٣ - الثروة الحيوانية :

لقد حفلت آى القرآن الكريم بذكر الثروة الحيوانية فى البر وفى البحر ، مع تفنُّنٍ فى ذكر أنواعها وأوْصافها وفوائدها ، فضلا عن ضَرْب المثل ببعضها وصُولاً إلى العِظة والاعتبار ، كما حفلت السُّنة النبوية ببيان أسلوب المحافظة عليها والرِّفق بها ، ذلك لأنها كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (١) ، كما ورد ذكرها فى القرآن كألوان العذاب الذى يسلطه الله ـ تعالى ـ على الكافرين ، أو متحدياً إياهم بأن يخلقوا شيئاً من أصغرها كالذباب ونحوه ، ولقد بلغت عناية القرآن بها حدّاً نجد من خلاله أنه سمى سوراً بأسماء بعض الحيوانات ، مثل : البقرة، والنحل ، والنمل ، والعنكبوت ، والفيل ، كما نجد فيه سورة الأنعام ، ونظرّاً لضخامة هذا الموضوع فسنكتفى هنا بذكر طائفة من النصوص توضح لنا الجوانب التى ألمحنا إليها حتى يسهل الإلمام بها :

يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ...﴾(٢) .

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨ .

(٢) سورة البقره ، من الآية : ٢٦ .

حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾(١) .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٢ – ١٤٦ .

(٢) سورة الأعراف : ١٣٣

(٣) سورة يوسف : ١٣ .

(٤) سورة النحل : ٥ – ٨ .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(١) .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾(٢) .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣).

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴾ (٤).

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٥) .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ (٧).

---

(١) سورة النحل : ٤٨.

(٢) سورة النحل : ٨٠ .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٥ و ١٧٦.

(٤) سورة الكهف ، من الآية :٣٢.

(٥) سورة الشعراء : ١٥٥.

(٦) سورة النمل : ١٨ .

(٧) سورة النمل : ٢٠ .

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١) .

﴿.. إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُ﴾(٢)

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (٣) .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٤) .

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ (٥) .

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٦) .

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧) .

---

(١) سورة العنكبوت : ٤١ .

(٢) سورة الحج ، من الآية : ٧٣ .

(٣) سورة لقمان : ١٩ .

(٤) سورة يس: ١٧١-١٧٣ .

(٥) سورة الأنبياء : ٧٨ .

(٦) سورة الغاشية : ١٧ .

(٧) سورة الصافات : ١٣٩-١٤٤ .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

* **مقررات الرفق بالحيوان خلق إسلامى :**

إن مقررات الرفق بالحيوان ميدان رحب فسيح فى شرع الله ، نجد ذلك واضحاً فى المنهج النظرى وضوحه فى التطبيق العملى، يتمثل ذلك فى الإجابة الحكيمة لرسول الله ـ ﷺ ـ حينما سئل : أئن لنا فى البهائم لأجراً؟ فقال : « نعم ،فى كل ذات كَبِدٍ رَطبة صَدَقة » . وفى تلك الوصية الرحيمة : « اتقوا لله فى هذه البهائم المعجَّمة ، فاركبوها صالحةً، وكلوها صالحةً » .

وفى ذلك التهديد الشديد: « مَنْ مثَّلَ بذى روح ثم لَمْ يتب مثَّل الله به يوم القيامة» ، وقد مر رسول الله ـ ﷺ ـ على حمار قد وُسِمَ فى وجهه (كواه صاحبه بالنار فى وجهه) ، فقال : «لعن الله الذى وسمه » (٤) .

---

(١) سورة القارعه : ٤ .

(٢) سورة الفيل : ١ .

(٣) سورة فاطر : ١٢ .

(٤) رواه مسلم

وإليك طائفة من الرفق بالحيوان فى التطبيق العملى :

* كان الرسول ـ ﷺ ـ يدُق الشعير لبغْلته «دُلْدُل» حينما سقطت أسنانها وكُفَّ بَصرُها .

* وكان يميلُ الإناء للهرة فى بيته لتتمكن من رى ظمئها.

* رأى عمر بن الخطاب رجلاً يسحب شاةً من رجلها ليذبحها ، فقال له : «ويلك ، قُدْها إلى الموت قوداً جميلاً » .

* نزلت حمامة وعشَّشَت بفُسْطاط (خيمة) عمرو بن العاص إبَّان الفتح الإسلامى لمصر ، فلما أراد الانصراف لم يُهجْهَا بتقويض الفسطاط، ولكنه تركه من أجلها ، فكان ذلك سبباً فى تكاثر العمران حوله وقيام مدينة كبيرة عرفت بهذا الاسم ، وهى مدينة الفسطاط .

* **الرفق بالحيوان فى الأحكام الفقهية :**

* نفقة الحيوان واجبة على مالكه .

* إذا لجأت هرة (قطة) إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه إذا لم تقدر على الانصراف .

* يُحْظَر تعذيب الدواب بضربها ، أو تحميلها أكثر من طاقتها ، وكانت مراقبة هذا الأمر من بين مهام المحتسب (المفتش) ، وقد يكون ذلك شبيهاً بمهام رجال المرور فى مراقبة الطرق لمعرفة الحمولة والسرعة وما إلى ذلك .

* أُنْشِئَتْ الأوقاف الخيرية للكلاب الضالة ، حيث توضع فى أماكن مخصصة لرعايتها استنقاذاً لها من الجوع حتى تستريح بالموت أو الاقتناء .

وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ إذ يقول : «عُذِّبَتْ امرأة فى هرة حبستْها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها وسقتها ، إذ حبستها،

ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » [1] .

وعن أنس قال : نهى رسول الله ـ ﷺ ـ أن تصبر البهائم » [2] .

وقد أوجب الإسلام زكاة فى الأنعام السائمة على نَحْوٍ قررتْهُ كتبُ الفقه.

٤ - الثروة النباتية :

وكما ذكرنا الثروة الحيوانية ، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يعنيان ببيان الثروة النباتية عناية فائقه ، تتجلى لنا من خلالها أبرز صفات وملامح تلك النباتات ، وكذلك خواصها ، وعلاقة الإنسان والحيوان بها ، كما نرى بعضها مادة خصبة لضرب الأمثال وإحياء الموتى ، بل وأمر الإنسان بالتفكر فى كل هذا ، وأن الله وحده هو القادرعلى الإنبات ، وأنه تعالى هو القادر على تحطيم تلك الزروع عقابا للمخالفين عن أمْره ، قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [3] .

وحتى نقف على بعض تلك الملاحظات فسنذكر جانباً من النصوص التى تدلنا على هذه الحقائق فيما يلى :

يقول الله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ

---

(١) متفق عليه ، رواه ابن عمر .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الواقعه : ٦٣-٦٧ .

فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(١) .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾(٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

---

(١) سورة البقرة ٢٦١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٥ .

(٣) سورة الأنعام : ٩٥ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٩

(٥) سورة الأنعام : ١٤١ .

يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (١) .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ (٢) .

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (٣) .

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ (٤) .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٥) .

﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ (٦) .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٤-٢٦ .

(٢) سورة الكهف :٣٢و٣٣ .

(٣) سورة مريم : ٢٥ .

(٤) سورة المؤمنون : ٢٠ .

(٥) سورة النور : ٣٥ .

(٦) سورة الصافات :١٤٦ .

رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (٢) .

ويقول رسول الله ـ ﷺ :

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ثم قال : حدثنا ماهى يارسول الله ؟ قال : هى النخلة » (٣) .

وهذا فيض من غيض .

وشكر هذه النعم يكون بإخراج حق الله فيها ممثلاً فى الزكاة ، ومراعاة حد الاعتدال ، والبعد عن الإسراف .

---

(١) سورة الفتح : ٢٩

(٢) سورة عبس : ٢٤ -٣٢ .

(٣) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى .

٥ - الزمن :

والزمن فى الواقع الإيمانى عنصر بيئى هام ، فهو وعاء لكل الأحداث والتفاعلات ، فكما يحتاج الإنسان إلى مكان يأوى إليه فهو بحاجة إلى الزمن أيضاً، والزمن يشمل الأيام والليالى والشهور والأعوام والدهور ، ونظرا لأن الإنسان مهتم بالوقت لأهميته فقد وجدنا محاولات الإنسان مستمرةً منذ فجر التاريخ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لقياس الوقت وتقديره ، ومن أجل هذا اختُرِعت المزاول والساعات الرملية والمائية والساعات التى نعرفها ، فضلا عن الساعات الذرية التى يحاول الإنسان بواسطتها تقدير عمر الأرض ؛ لذلك رأينا القرآن الكريم يلفت أنظارنا ويوجه عقولنا ، إلى أهمية الوقت والزمن، فيقسم بالزمن كله أو بأجزاء منه ، فيقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (١) ، ويقول : ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ (٢) ويقول : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (٣) . ويقول : ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(٤) . ويقول : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (٥) ويقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(٦). ويقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ

---

(١) سورة الفجر : ١و٢ .

(٢) سورة العصر : ١و٢ .

(٣) سورة الضحى : ١و٢ .

(٤) سورة التكوير : ١٨ .

(٥) سورة النبأ : ١٠و١١ .

(٦) سورة الفرقان : ٦٢ .

تَفْصِيلًا ﴾ (١).

ويقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (٢). ويقول: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٣) . فأيام الله هنا هى نعمه ، ولا شك أن لكل نعمة وقتاً وزماناً تظهر فيه ، فهو تذكير بقيمة الوقت أيضاً .

ويقول رسول الله ـ ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ » رواه البخارى عن ابن عباس .

ويقول أيضاً : «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال :

عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ » (٤) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ -: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أوولد صالح يدعو له»(٥) .

فالإنسان مطالب بالسعى والجد والعمل الدءوب ، لما فيه خير نفسه وخير غيره ؛ لأنّ عمره نعمة سيسأل عنها ، ويحاسب عليها ، بخلاف غير لمؤمن،

---

(١) سورة الإسراء : ١٢ .

(٢) سورة الفرقان : ٤٥و٤٦ .

(٣) سورة إبراهيم ، من الآية : ٥

(٤) انظر الخطابة وفنون القول الأخرى ص١١٦ .

(٥) رواه البخارى

فإنه ينظر إلى الوقت وكأنه شيء فارغ عن المحتوى ، خال من المضمون، فهو يعيش عمره طولا وعرضاً ساهياً لاهياً ، يُردِّدُ قول الجاهلين : إنْ هى إلا أرحام تَدْفَع ، وأرض تَبْلَع ، وما يهلكنا إلا الدهر . وعلى العاقل أن يكون فى تقدم مُطرِّد فى فعل الخيرات ، ففى الحكمة : من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان يومه شرّاً من أمسه فهو مفتون ، ومن كان يومه خيراً من أمسه فهو المؤمن .

(ب) الشق المعنوى :

ويشمل هذا الجانب إرادة الخبر أو الشر ، وما يترتب عليها من آثار بيئية حميدة ، أوعواقب وخيمة ، ولا يقل هذا الشق فى أهميته عن سابقه ، فضلاً عن أنه بمثابة الضابط له والمهيمن عليه ، وتتولى العقيدة الصحيحة بَعْث ملكات الخير فى النفس على حساب الحد من إرادة الشرور والعدوان على البيئة .

سادساً : مكونات البيئة بين الوفرة والندرة :

إن المؤمن على يقين تام ، واقتناع كامل ، بأن الله قد أمد هذا الكون بما يحتاج إليه البشر ، جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً بعد قبيل ، فضلاً عمّا تحتاج إليه سائر المخلوقات ، وما تصلح به حياتها ، وقد لفت القرآن أنظارنا إلى قضية الوفرة والندرة فى قول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي

أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

وإذا كان المشركون الذين يعيثون فى الأرض فساداً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتبنَّوْن قضايا ضالة ومُضلة ، لا تنطلى إلا على السُّذَّج من الناس ، فبدلاً من أن ينسبوا الموارد وتدهورها إلى سفههم فى الإنتاج والاستهلاك ، أضحوا ينسبون ذلك لزيادة السكان ، ويجعلون هذه القضيه مِشْجَباً (شماعة) يعلقون عليها كل تصرفاتهم الخاطئة ـ فإننا لا نجد أبلغ فى الرد عليهم من تلك النصوص القرآنية المضيئة ، كما نضيف إليها طائفة من أقوال بنى جلدتهم، لِتدْحَضَ باطلهم وذلك على نحو مايلى :

١ – يقول «روبرت ألن» مسئول المنظمة الدولية للمحافظة على الطبيعة فى جنيف :

« إننا نعلن للعالم أن الأرض يمكن أن تزود البشر بما يريدون ، ولكن بشرط مراعاة حدود معقولة لا تتجاوز حَدَّ الإسراف » .

---

(١) سورة فصلت : ٩و١٠ .

(٢) سورة المرسلات : ٢٥و٢٦ .

(٣) سورة هود : ٦ .

(٤) سورة العنكبوت : ٦٠ .

إذاً فالإسراف والتبذير هما اللذان يبددان موارد البيئة ، ويجنيان أخطر جناية على البشر ، وقد جعل الله المبذرين إخوان الشياطين .

٢ – من بين توصيات المؤتمر العالمى عن البيئة المحيطة الذى عُقد فى «ستوكهولم» فى الفترة من ٥–١٦ من يونيو ١٩٧٢م والذى اشترك فيه ١٢٠٠ مندوب ينتمون إلى ١١٢ دولة ، بالإضافة إلى اشتراك ٣ آلاف مراقب: « إن كل بلاد العالم الثالث تدرك أن مشكلاتها الأساسية لَيست فى تحديد المواليد ، وإنما هى مشكلات اقتصادية ، أى مشكلة نمو اقتصادى ، واستشهدوا بعدد سكان الصين الذى بلغ ٧١٠ ملايين نسمة فى عام ١٩٧٠م ولكن هذا لم يمنعها من تحسين مستوى معيشتها ، وتحسين محيطها البيئى، وبناءً على هذا فلابد من إعادة النظر فى طريقة معالجة الاقتصاد العالمى، ووضع أساس سليم للسياسة الاقتصادية الدولية ، والعلاقات التجارية ، وتنظيم الاستثمار» [١] .

٣ – يقول كبير مسئولى الأمم المتحدة :

« إنه إذا كان كثير من اللوم فى عدم المحافظة على مصادر الثروة يرجع إلى وجود الأغنياء والفقراء ، عندئذ يجب أن نقول : إن الدول الغنية تتصرف بصورة أنانية وقصيرة النظر ؛ فمساعداتها للدول الفقيرة لا تزيد على ٧و٠ ٪ من مجمل إنتاجها القومى ، وهى لا تقبل أى محاولات لأى إشراف دولى على مصادر الثروة ، بل تفضل أن يظل الجميع أحراراً يتصرفون كما يشاءون ، والدول الغنية تستهلك ثُلُثَىْ الطاقة والغذاء فى العالم برغم أن تعدادها لا يزيد على ثلث تعداد العالم ، وهذا النوع من الاستهلاك

---

(١) مجلة العربى ، عدد ٤٠٤ .

لا يمكن بالطبع أن يستمر » [1] .

فهم يقرون بكفاية الموارد شريطة البعد عن الإسراف ، كما يلصقون فساد البيئة بالأغنياء ، كما يدعون لوضع أساس سليم لسياسة اقتصادية دولية . ويبرءون ساحة الزيادة السكانية من الضغط على الموارد ، وينعون على الأغنياء جَعْلَهم أيديهم مغلولة إلى الأعناق ، وضَنّهم بما عندهم على الفقراء ، ونحن نوافقهم على ذلك ، وعلى أن معوناتهم سِياطٌ تلهب ظهور الفقراء ، فهى لا تُسْمِنُ ولا تُغْنِى من جوع .

سابعاً : الحكمة من خلق البيئة ومكوناتها :

لايخلو خلق الله ـ تعالى ـ أىَّ شىء من حكمة ، ونود أن نتعرف على معنى الحكمة قبل بيان أنواعها ليكون أعون على البحث عنها والاستفادة منها.

*** معنى الحكمة :**

للحكمة معانٍ كثيرة ، وللعلماء فيها كلام مستفيض نجتزئ منه بمايلى:

١ – ذهب ابن عباس إلى أن الحكمة المقصودة فى قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [2] تعنى القرآن والفهم فيه .

٢ – قال مجاهد : هى القرآن والعلم والفقه .

٣ – قال أبو مالك : هى السنة .

٤ – وقيل : هى العلم النافع المؤدى إلى العمل الصالح .

وهذا المعنى الأخير للحكمة ـ على إجماله ـ يتفق مع ما نهدف إليه ، فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها فهو أولى الناس بها ، ونحن حينما نُعْمِلُ

(١) الأهرام ص ٥ بتاريخ ١٩٩٠/٣/١٦م

(٢) سورة البقرة ، من الآية :٢٦٩ .

الفكر ، ونُجيلُ النظر فى مكونات البيئة ومقدراتها ، فإننا بهذا إنما نحاول الوصول إلى العلم النافع بخصوصها ، فكل جزء يسير منها إنما هو نعمة عظمى لله ، والوقوف على هذا المعنى يدفعنا قطعاً إلى العمل الصالح الذى يقربنا إلى الله .

* **وتتلخص الحكمة من خلق مكونات البيئة فيما يلى :**

١ - إنها مخلوقة لبنى آدم ومسخرة لهم ومُذَلَّلة ، ويقول الله ـ تعالى ـ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١) . وقال ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(٢) .

٢ - إنها آيات دالة على قدرة الله ـ تعالى ـ يقول جل شأنه : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىٍ۟ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣) .

٣ - مجال خصب للتذكير بالله ، والتفكر فى عظيم صنعه :

إن صفحة هذا الكون هى كتاب الله المنظور ، كما أن القرآن الكريم هو كتابه المسطور ، فالكون من أصغر ذَرَّة إلى أكبر مَجَرَّة يشتمل على حشد هائل من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ، ونستطيع إدراك تلك الأسرار عن طريق التفكر الواعى ، والنظر العميق إلى ما أودعه الله فيها من التقدير والتدبير ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٩ .

(٢) سورة الملك : ١٥ .

(٣) سورة الذاريات : ٤٧ - ٤٩

فضلاً عمَّا نراه فيها من التسخير والتسيير ، يتضح لنا ذلك جلياً من خلال النصوص التالية : يقول الله ـ تعالى :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (١) . ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣) .

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٤) .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠و١٩١ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٤ .

(٣) سورة إبراهيم : ٣٢ – ٣٤ .

(٤) سورة النحل : ١٦ .

(٥) سورة الطارق : ٥ – ٧ .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (١) .

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

وقد قال رسول الله ـ ﷺ :

« تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله ؛ فإنكم لن تقدروا قدره» (٣) .

ثامناً : تأثير البيئة على الإنسان بين الجبر والاختيار :

نظراً لما للبيئة الجغرافية من مقومات ، وما تتعرض له من عوامل ، وما تمتاز به من تضاريس ، فإنها تصوغ حياة الإنسان وتشكلها فى الغالب الأعم منها ، إلى الحد الذى رأينا فيه اتفاقاً فى الرأى بين التربويين والاجتماعيين والطبيعيين ، على أن الإنسان ابن بيئته الطبيعية والاجتماعية والثقافية ، وأنه كما يتأثر بها يؤثر فيها ، وهو ما يعبر عنه بمفهوم : «التناضح البيئى» أى التفاعل المتبادل بين الإنسان والبيئة .

---

(١) سورة عبس : ٢٤ -٣٢ .

(٢) سورة الذاريات : ٢١ .

(٣) رواه أبو نعيم عن ابن عباس .

وقد بالغ البعض فى تقدير الدور الذى تؤثر به البيئة على الإنسان إلى الحد الذى جعله يتسم بطابع الجبر ، أى أن البيئة مجبولة على التأثير فى الإنسان بهذه الصورة ، ولاتستطيع من ذلك فكاكاً ، وكذلك الإنسان لا اختيار له فى شىء من نظم حياته العامة ، ومن هذا الفريق بعض علماء الاجتماع ، ونذكر منهم على سبيل المثال :

* أرسطو :

يقول : « إن تقسيم الناس إلى سادة وعبيد أمر ليس فيه شىء من الظلم أو القسوة ؛ لأنه نظام فطرى أرادته الطبيعة ، وأمرت باتباعه ، فأنشأت فى البلاد الحارة كآسيا قوماً كسالى لا يصلحون إلاّ أن يكونوا عبيداً ، وأما فى البلاد المعتدلة كأفريقيا فتجد قوماً نشطاء مُجدين هم سادة بطبيعتهم لا بالاتفاق»[1]

* ابن خلدون :

ومن عجب أن يذهب المفكر الإسلامى وعالم الاجتماع عبد الرحمن ابن خلدون إلى رأى هو الجبر بعينه ، حيث ذهب فى مقدمته إلى القول بأن النبوات إنما توجد فى المناطق الأكثر اعتدالاً ، ولم يقف على خبر بعثة نبى فى الأقاليم الشمالية أو الجنوبية ؛ وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع الإنسانى فى خلقهم وأخلاقهم ، قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[2] ، وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله، وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال فيهم ، فنجدهم على غايةٍ فى التوسط فى مساكنهم وأقوالهم وصفاتهم .

(١) انظر: الإسلام والبيئة ص . ٣٠

(٢) سورة آل عمران : جزء من الآية ١١٠ .

والحق أن فى الأخذ بهذا الرأى افتياتا على حرية الإنسان، وتعطيلا لعالمية رسالته ـ ﷺ ـ وخلطا لجميع الأوراق ، فالله قد خلق آدم على صورة جميلة ، وكذلك بنوه الذين انتشروا فى الأرض يعمرونها من بعده ، والبيئة لا تؤثر فى الإنسان إلاَّ بقدر مافيها من قوانين تؤثر على لغته ولونه، يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (١) ، مع وجود القدرة على تعمير الأرض ، ومن ثم يسقط كل زعم لتمييز إنسان على إنسان بسبب اللون أو الجنس أو أى سبب آخر يفرزه فكر بشرى قاصر ، والإنسان يسير فى الحياة على هدى من توجيه غريزته وعقله فى ضوء توجيه عقيدته الدينية الصحيحة التى تحفظ عليه توازنه ، فتضبط إيقاع غريزته فى هدى عقله ، وهذا فرق مابين الإنسان والحيوان الذى يتحرك فى الحياة بدافع من غريزته فقط ، وهذا دليل على جبر الحيوان وتسخيره لبنى الإنسان .

ولا ينفى كل هذا ارتباط الإنسان ببيئته ، وحبه لها ، واستحسانه لمكوناتها، بل وتفضيلها على غيرها ، فذلك أمر إنما يُصَارُ إليه بحكم الإلْفِ والعادة ، فقد رأينا رسول الله ـ ﷺ ـ يقف على مشارف مكة يوم الهجرة قائلاً : « اللهم إنك أحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إلىَّ ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ماخرجت » (٢) .

ولقد امتنَعَ عن أكَل الضَّبِّ حين قدم إليه ، فظن بعض الحاضرين أنه مُحَرَّم ، فقال : « لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه » .

---

(١) سورة الروم : ٢٢ .

(٢) انظر سيرة النبى لابن هشام .

ومع هذا الارتباط القوى ، فإن الإسلام يجعل أمْرَ الارتحال من بيئة إلى أخرى شيئاً مشروعاً إذا ضاقت سُبُل العيش فى بيئة الإنسان وموطنه ، فينعى الإسلام على المستضعفين رضوخهم لمعيشة الذل والهوان ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ (١) ، أو إذا ضُيِّقَ عليه فى دينه ، وهجرة الأنبياء خير شاهد على ذلك .

ولعل من الحكم المستخلصة من مشروعية الحج أن يكسر الإنسان حِدَّةَ الرتابة والإقامة فى البيئة إلى السياحة الدينية ، حيث يوطن النفس على الاستعداد ليوم الرحيل الأكبر .

تاسعاً : المنهج الإيمانى فى استغلال مكونات البيئة والتعايش السلمى معها:

نصل الآن بك ـ أخى القارئى ـ إلى لُبِّ هذا الموضوع وثمرته ، وجوهره وغايته ، نصل بك إلى المنهج الصحيح الذى وضعه الله لعباده المؤمنين لكى يحسنوا استغلال بيئتهم الجغرافية ، ويتعايشوا معها سلميّاً؛ لكى يجنوا من وراء ذلك أطيب الثمرات ، وذلك ـ بطبيعة الحال ـ متوقف على سيادة المنهج الإصلاحى فى شتى البقاع ومختلف النواحى والأصقاع ،ويطيب لنا أن يكون حديثنا عن هذا المنهج على النحو التالى :

(أ) بين يدى هذا المنهج :

إن المنهج الإيمانى فى التعايش السلمى مع البيئة منهج شامل ، فهو كُلٌّ لا يتجزأ ، ووحدة متماسكة لا تنفصم عُراها ، وهو طوق نجاة البشرية الوحيد ،

---

(١) سورة النساء، من الآية : ٩٧ .

ففى ظله يعمل الإنسان للدنيا والآخرة ، وبسمو تعاليمه تنتظم علاقة العبد بربه وبإخوانه وبسائر المخلوقات ، فالإنسان الذى سقَى الكلبَ ورحمه أدخلَه الله الجنة ، والمرأةُ الذى عذَّبت القطةَ أدخلها اللهُ النار ، فالإسلام يُنَمِّى حوافز الفَرْد ، ويدْفعه للعمل النافع والإبداع ، ففى تحسين العمل وتجويده تحصيل لمرضاة الله وحُسن ثوابه ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ويقول رسول الله ـ ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتْقِنَه » .

كما يضع الإسلام لكل تصرف ضوابطه وقيوده التى تحد من طغيانه وجموحه ، ففى الحديث : «نعم المال الصالح للعبد الصالح» ففى نماء ثروة الأفراد ونقائها نماء لثروة الأُمة ، ونفع لأبناء الوطن كافة ؛ ولهذا فقد حرم الإسلام الإسراف والتبذير ، وجعل المبذرين إخوان الشياطين ، كما حرم الترف الذى يقسم الشعوب إلى أقليات ناعمة مُتَرَهِّلَة عاطلة ، وأكثرية مطحونة محرومة متطلعة .

ومن المفيد لنا فى هذا الصدد أن نضع تلك الملاحظات بين يدى هذا المنهج :

١ – التراث الإسلامى غنى وحافل ببرامج الإصلاح البيئى :

من الضرورى عندما نبحث عن الحلول العملية لقضايانا أو مُشكلاتنا أن نلْجأ إلى تراثنا ومَوْروثاتنا الثقافية والدينية ، عندئذ سنجد فيها بتوفيق الله المؤشرات الصحيحة ، فضلاً عن التوصُّل إلى الحلول المُثْلَى ، ثم لا مانع بعد

---

(١) سورة التوبة ، من الآية : ١٢٠ .

ذلك من الاستفادة بخبرات الآخرين وتجاربهم مع توظيفها طِبْقا لمتطلباتنا واحتياجاتنا ، فتلك هى البداية الصحيحة ، والمنهج الأمثل فى التفكير والتصدى للمشكلات ، ولكن الذى يحدث شيء آخر ، شيء على عكس ذلك تماماً ، فإننا نلجأ فى هذه المواطن ـ انطلاقاً من عقدة الخواجه ـ إلى الغرب أو الشرق نستطلع آراءهم ، ونقلب أحداقنا فى بُطون أوراقهم ، ثم لا نلبث أن ننقل عنهم نقلاً آلياً ، ونأخذ عنهم مباشرةً بدون تعديل أو تغيير ، ضاربين صفحاً عن مدى مطابقة هذه التقنيات المستوردة لحالاتنا الخاصة ، فضلاً عن مناسبتها لبيئاتنا ، وموافقتها لعاداتنا وتقاليدنا .

٢ – البيئة للجميع :

إن موارد البيئة هى من أَجَلِّ نعم الله على بنى البشر ، وإن الله قد أعطانا جميعاً حق الانتفاع بها ، فلا يحق لطائفة الاستئثار بها دون غيرها .

٣ – الإنسان وصى على البيئة لا مالكٌ لها :

إن الإنسان خليفة عن الله فى ملكه ، ووصى على البيئة وليس مالكا لها، فعليه من هذا المنطلق أن يأخذ منها بقدر البلاغ ، مع أداء حق هذه النعمة وشكرها ، بالمحافظة عليها ، وبإعْطاء حق الله فيها للمحتاجين ، فشكر النعمة عامل من عوامل استدامتها ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (١) .

وكُفْران النعمة مَدْعَاةٌ لزوالها . ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٧ .

ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (١) .

٤ - أمانة الحفاظ على البيئة جزء من عقيدة المؤمن :

إن المحافظة على مكونات البيئة جزء من عقيدة المؤمن ، قالَ ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستُّون شُعبة فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذَى عن طريق » (٢) ويقول ـ ﷺ : « الطهور شطر الإيمان » . كما أنه يدخل فى نطاق أعمال البر ، عن أبى ذَرّ قال : قال رسول الله ـ ﷺ : «عُرضت عَلَىَّ أعمال أُمتى حسَنُها وسيِّئُها ، فوجدت فى محاسِن أعمالها الأذَى يُماطُ عن الطريق ، ووجدت فى مساوئ أعمالها النخامة تكون فى المسجد لاتُدْفَن » (٣) . ويشمل ذلك كلَّ أذى يُزَال عن طريق المسلمين ومستقراتهم .

يجب علينا أن نتعامَلَ مع البيئة من منطلق القواعد الفقهية الأصولية العامة :

مثل : دَرْء المفاسد مَقَدَّمٌ على جلب المصالح . و«لاضَرَرَ ولاضرَار»(٤) و « التَّخْلِيَةُ تسبق التحلية » .

---

(١) سورة النحل : ١١٢ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم (٥٥٣) .

(٤) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى .

(ب) أسس هذا المنهج :

إن المنهج الإيمانى لاستغلال مكونات البيئة الطبيعية منهج واضح يقوم على أسس دقيقة ، ومبادئ سليمة ، ونستطيع أن نُلْمِحَ إلى بعضها فيما يلى :

١ - إحكام التدبير مع دقة التقدير :

إن المتتبع لآيات القرآن يراها تجلى لنا هذه الحقيقة ، فهذا الكون الذى نعيش فيه ، من فرشه إلى عرشه ، محكم تمام الإحكام ، فضلاً عن تشييده على علم ، ولولا ذلك ما استقرَّ ولا استمرَّ ، فلنطالع معاً تلك النصوص المضيئة : يقول الله تعالى:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (٢) .

وقد أقسم الله ـ تعالى ـ بهذه الأجْرام لضخامة خلقها فى مواضع شتى فى القرآن الكريم ، ونحن نورد جانبا من هذه النصوص فيما يلى :

---

(١) سورة الذاريات : ٤٧ - ٤٩ .

(٢) سورة ق : ٦ - ١١ .

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (١)

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

كما إن دقة الصنع مقرونة بالبهجة والجودة والكرم ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ * وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿... وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (٥) .

ونحن مأمورون بتدبر كل هذا ، لارتباطنا بالأرض ارتباطاً قوياً ، ففيها مستقرنا ، ومنها منشؤنا ، وإليها مرجعنا ، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ

---

(١) سورة الواقعة : ٧٥و٧٦

(٢) سورة الحاقة : ٣٨و٣٩ .

(٣) سورة غافر : ٥٧ .

(٤) سورة الحجر : ١٦ – ٢٢ .

(٥) سورة الحج : آخر الآية : ٥ .

وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (١) ، منها خلقناكم للعمل والاكتساب ، وفيها نعيدكم للدود والتراب ، ومنها نخرجكم للعرض والحساب .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (٢) .

كما أن فى السماء تقدير أرزاقنا ، ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٣) .

وتَلْفِتُنَا هذه النصوص إلى أن هذا الكون بأسره قائم على العدل والحق ، فإذا استقام الناس على ذلك استقامت لهم الحياة ، وإذا تنكبوا هذا الطريق ظهر الفساد فى البيئة برّاً وبحراً وجوّاً .

٢ - كفّ الأذى مبدأ إيمانى هام :

لقد جاء الإسلام بقواعد سامية لإرساء مبدأ كف الأذى ودفعه ، سواء فى الجانب المادى أو المعنوى ، فحرَّم بعض الأطعمة وجعلها نجسة العين لما تحمله فى طياتها من أذى للإنسان إذا أقدم على أكلها ، يقول الله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ (٥) ، كما حرم

---

(١) سورة طه : ٥٥ .

(٢) سورة نوح : ١٧ - ٢٠

(٣) سورة الذاريات : ٢٢ .

(٤) سورة الأنعام ، من الآية : ١٤٥ .

(٥) سورة المائدة ، من الآية : ٣ .

سُؤْر (بقية ماء الشرب) الكلب والخنزير وجعله نجساً نجاسة مُغلَّظة ، كما يطلب من الإنسان أن يتنزه عن البول والغائط حتى لا يعلق بجسمه شيء منهما، وكذلك ما يخرج من بدن الإنسان كالدم والقيح والصديد وخلافه .

ومن المقومات البيئية التى وجه الإسلام أتباعه إلى كف الأذى عنها مايلى:

* الماء : فقد حرص الإسلام على نظافة الماء وطهارته ، والبعد عن تلويث المياه ولوبطريق الخطأ ، أوبطريق غير مباشر ، فقال النبى ـ ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلايَغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإنه لا يدرى أين باتت يدُه » (١) . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ـ ﷺ : «لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل منه » (٢) . وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يغتسل أحدكم فى الماء الدائم وهو جُنُب ، فقال أبو السائب ـ راوى الحديث: كيف يغتسل ياأباهريرة ؟ قال : يتناوله تناولاً » (٣) .

* الطريق والظِّل : يقول رسول الله ـ ﷺ : « اتقوا اللاَّعنين (أى ما يوجب لعنة الناس) ، قالوا وما اللاعنان؟ قال : الذى يَتَخلَّى (يقضى حاجته من بول أوغائط) فى طريق الناس وظِلِّهم » (٤) ويقول أيضاً « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز فى الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » (٥) .

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه .

« نهى رسول الله أن يبال فى الماء الراكد » (١) .

ومن وسائل تطهير النجاسات مايلى :

* صب الماء على النجاسة ذات الجرم لقلع عينها :

فعن أبى هريرة قال : «قدم أعرابى فبال فى المسجد ، فقام إليه الناس ليوقعِوا به ، فقال النبى ـ ﷺ : دعوه ، وفى رواية : لا تقطعوا على الرجل بوله ، فبال ، فلما قضى حاجته قال النبى : « أريقوا على بوله سَجْلاً من الماء (أى دلواً من الماء) فإنما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرين ، ولم تُبعثُوا مُعسِّرين » (٢)

* جفافها وتحولها ترابا :

قالت عائشة ـ رضى الله عنها : « زكاة الأرض يبسها » .

مع مراعاة أنه يجوز الصلاة عليها دون التيمم منها .

* دبغ الجلود :

تطهر الجلود إذا سلخت ودُبِغَتْ بالتراب أوالملح أو القَرَظ (قشر الرمان) وهو مادة قابضة تزيل عفونات الجلود ويحل الانتفاع بها ، سواء أكانت لحيوان مأكول اللحم ، ذُكِّى أولم يُـذَكَّ ، أو غير مأكول كالحُمُر والخيل ، لحديث: «أيُّما إهاب دُبِغَ فقد طَهُر » (٣) ، وكما فى معنى حديث أحمد ، أن رسول رسول الله ـ ﷺ ـ مرَّ على شاة ميتة لميمونة فقال : « هَلاَّ أخذتم إهابها (جلدها) فدبغتموه فانتفعتم به فإنه زكاته » .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

وقد أكد العلم الحديث خطورة تلويث الموارد المائية والظل والطرقات من حيث نقل الأمراض الطفيلية المتوطنة وغيرها كالبلهارسيا والإنكلستوما وكثير من الديدان الدبوسية والدوسنتاريا ، وما ينسحب على هذه الملوثات ينسحب على غيرها من الملوثات البيئية الحديثة ذلك لأنها لم تكن موجودة على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وقد اتضح لنا أيضاً أن رسول الله ـ ﷺ ـ لعنايته بنظافة البيئة وصحتها يُعَدُّ الواضع الأول لقواعد الصحة الوقائية فى إطار من الإعجاز العلمى لم تتكشف للناس طياته إلا بعد ١٤ قرناً من الزمان ، ولكن المسلمين الأوائل استفادوا به ؛ لأن منهجهم قد تمثل فى قول الله تعالى ﴿سمعنا وأطعنا﴾ .

٣ – التوسط فى مرافق الحياة :

لقد وردت النصوص الكثيرة (قرآناً وسنة) تدعو إلى التوسط والاعتدال فى مرافق الحياة مع إباحتها ، وذلك لقلة شأنها واستصغار أمرها ، وحتى لا يركن الإنسان إليها فتغريه وتلهيه عن العمل للآخرة التى هى خير وأبقى ، يقول الله تعالى ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٢) ، وفى الحديث الشريف الذى رواه سهل بن سعد : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء»(٣) .

---

(١) سورة غافر : ٣٩ .

(٢) سورة النساء ، من الآية : ٧٧ .

(٣) رواه الترمذى .

ويقول الله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (٢) .

*** توضيح للنصوص الواردة فى ذم الدنيا :**

وردت بعض النصوص فى ذَمِّ الدنيا ، ويرى أهل العلم بخصوصها أن الذم الوارد فيها لا ينصبُّ على زمانها من ليل ونهار ، فإن الله جعلهما خلفةً لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكوراً ، كما لا ينصب على مكانها وهو الأرض ، ولا ينصرف إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن والرياح والأمطار ، ولا إلى ما أنبت فيها من زرع وشجر ، ولا إلى مابثَّ فيها من دابة، فكل ذلك من نعم الله على عباده ، وإنما ينصب ذلك الذم وينصرف إلى أفعال بنى آدم وممارساتهم الواقعة فى الدنيا ؛ لأن غالب هذه الأفعال واقع على غير الوجه الذى تحمد عاقبته ، يقول الله تعالى :

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ﴾(٣) .

---

(١) سورة الأعراف : ٣١ .

(٢) سورة القصص : ٧٧ .

(٣) سورة الحديد ، من الآية : ٢٠

والناس بالنسبة للدنيا فريقان :

الكفار :

وقد لخّص الله موقفهم من متاع الدنيا بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (١) ، فهم يعكُفون على الدنيا بنهم ، ويعبُّون من خيراتها بشراهة ، حتى إنهم يشبهون الأنعام التي لاتتقيدُ بقيود ، ولا تحدُّها حدود ، فالدنيا فى نظرهم كل شيء ، فلا بعْثَ ولانشور، ولا حسابَ ولا عقاب ، لسان حالهم يقول : إنْ هى إلا أرحام تدْفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما نحن بمبعوثين .

المؤمنون :

وهؤلاء بدورهم منقسمون إلى ثلاث مراتب :

(أ) **ظالم لنفسه** : وهم الأكثرون ، فهم الذين أخذوا زهرة الحياة الدنيا وزينتها من غير وجهها المشروع ، واستعملوها فى غير وجهها أيضاً ، فبدلاً من أن يصرفوها فى وجوه البر والخير ، بدَّدوها فى أماكن اللهو والزينة والتفاخر، فهم فى حقيقة أمرها . الأمر لايعرفون المقصود من الدنيا ، ولم يفهموا حقيقة أمرها .

(ب) **المقتصد** : وهو الذى يأخذ الدنيا من وجوهها المباحة ، ويؤدى وأجباتها ، ويمسك لنفسه الزائد على الواجب ، يتوسع به فى التمتع بشهوات الدنيا ، ولا عقاب عليه فى ذلك ، إلا أنه ينقص من درجاته فى الآخرة بقدر توسعه فى الدنيا ، وفى ذلك يقول الفضيل بن عياض : « إن شئت اسْتَقِلَّ من الدنيا ، وإن شئت استكثر منها ، فإنما تأخذ من كيسك » (٢) .

٢- جامع العلوم والحكم لإبن رجب الحنبلى .

---

(١) سورة محمد : ١٣ .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى

(جـ) السابق بالخيرات بإذن الله :

وهم الذين فهموا المراد من الدنيا ، وعملوا بمقتضى ذلك ، فاكتَفَوْا منها بما يكتفى به المسافر فى سفره ، ولا بأس بأن يتناوَلَ بعض الشهوات المباحة ؛ ليتقوى بها على الطاعة ، ولينشط للعمل ، يقول النبى ـ ﷺ : «إنما يكفى أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب» ويقول : «مالى وللدنيا ، وإنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قَالَ تحت شجرة ثم راح وتركها» ، وهؤلاء قد فهموا الزهد فى الدنيا بالمعنى الذى أراده رسول الله ، فعن أبى ذر قال : قال رسول الله ـ ﷺ : «الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة فى الدنيا ألاَّ تكون بما فى يديك أوثق بما فى يد الله ، وأن تكون المصيبة إذا أنت أُصبت بها أرغبَ فيها لو أنها بقيت لك» فهم الذين أخذوا من الدنيا بقدر البلاغ وأحسنوا.

١ – العمل الدائم والسعى الدائب :

إن الإنسان فى ظل الإسلام مطالب بأن يعمرَ الحياة بالعمل النافع المفيد، وأن يسعى فيها سعياً حثيثاً ، واضعاً فى حسبانه أنه مَجْزِىٌّ بهذا العمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرٌّ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ (١) ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، فإذا كان الله قد ضمِن أرزاق خلقه فقال : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا

(١) سورة الانشقاق: ٦ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٥ .

عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، فقد اقتضت حكمته ألا تُنَال هذه الأرزاق التى ضمنها ، والمعايش التى يسرها إلا بالجهد والعمل ، يقول الله تعالى : ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[2] ويقول : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[3] ويقول : ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[4] .

وقد حث رسول الله ـ ﷺ ـ الأمة على العمل فقال . « التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء »[5]

* « مامن مسلم يزرع زرعاً أويغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » [6]

* « ماأكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده »[7]

* عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « من باتَ كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له »[8] .

---

(١) سورة هود : ٦ .

(٢) سورة الملك ، من الآية : ١٥ .

(٣) سورة الجمعة ، من الآية : ١٠ .

(٤) سورة المزمل ، من الآية : ٢٠ .

(٥) رواه الترمذى والحاكم بإسناد حسن .

(٦) رواه البخارى

(٧) رواه البخارى .

(٨) رواه ابن عساكر .

* عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « من أمسىَ كالأمن عمل يديه أمسى مغفوراً له » [١]

*عن الزبير بن العوام أن النبى ـ ﷺ قال : «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكفُّ الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطوه أومنعوه »[٢] .

* ويقول رسول الله ـ ﷺ : «مابعث الله نبياً إلا ورعى الغنَمَ . قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» [٣] .

* وذكر الحاكم من حديث ابن عباس « أنَّ داود كان زرَّاداً (يصنع الزرد والدروع من الحديد) ، وكان آدم حراثا وكان نوح نجارا ، وكان إدريس خياطاً ، وكان موسى راعياً » .

* عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ: « لأن يَغْدُوَ أحدكم فيحتطب على ظهره ليتصدق به ، وليستغنى عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ، ذلك لأن اليد العليا خير من اليد السفلى»[٤].

ويروى الصوفية أن أحد الصالحين ، واسمه شقيق البَلْخى ، ذهب فى رحلة تجارية يضرب فى الأرض ويبتغى من فضل الله ، وقبل سفره ودَّع صديقه الزاهد المعروف إبراهيم بن أدهم ، الذى توقع أن يمكث فى رحلته مدة طويلة ، ولكن لم تمض إلا أيام قلائل حتى عاد شقيق ورآه إبراهيم

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه البخارى .

(٤) رواه مسلم .

فى المسجد ، فقال متعجباً : ماالذى عجَّل بعودتك ؟ قال شقيق : رأيت فى سفرى عجباً ، فعدلت عن الرحلة ، وذلك أنى أويت إلى بيت خَرِبٍ لأستريح فيه ، فوجدت به طائراً كسيحاً أعمى ، فعجبت وقلت فى نفسى : كيف يعيش هذا الطائر فى هذا المكان النائى وهولا يبصر ولا يتحرك ؟ ولم ألبث إلا قليلاً حتى أقبل طائر آخر يحمل له الطعام فى اليوم عدة مرات حتى يكتفى ، فقلت : إن الذى رزق هذا الطير فى هذا المكان قادر على أن يرزقنى، وعدت من ساعتى .

فقال إبراهيم : عجباً لك ياشقيق ، ولماذا رضيت لنفسك أن تكون الطائر الأعمى الكسيح الذى يعيش على معونة غيره ، ولم ترض لها أن تكون الطائر الآخر الذى يسعى على نفسه وعلى غيره من العميان والمقعدين ؟ أما علمت أن اليد العليا خير من اليد السفلى ؟ فقام شقيق إلى إبراهيم وقبل يده وقال : أنت أستاذنا يا أبا إسحاق وعاد إلى تجارته .[1]

* **خطة عمل متواضعة لمواجهة الفقر والحاجة :**

روى أصحاب السنن عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً من الأنصار أتى النبى ـ ﷺ ـ فقال : أما فى بيتك شىء ؟ قال : بلى ، حِلْسٌ (كِسَاء) نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْبٌ (إناء خشب) نشرب فيه الماء .

قال : ائْتنى بهما . فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله وقال : من يشترى هذين ؟

فقال رجل : أنا آخذهما بدرهم .

---

(١) انظر مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .د . القرضاوى ص٣٩ . مكتبة وهبة .

قال : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً .

قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين .

فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين ، وأعطاهما الأنصاريَّ ، وقال له:

« اشتر بأحدهما طعاماً وانبذه إلى أهللك ، واشترِ بالآخر قدوماً فأْتنى به، فشد فيه رسول الله ـ ﷺ ـ عوداً بيده ثم قال له : اذهب فاحتطب وبعْ ، ولا أرَينَّك خمسة عشر يوماً » .

فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً ، وببعضها طعاماً ، فقال رسول الله : «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة ؟ إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة : لذى فقر مدقع (شديد) أولذى غُرْم مُفْظِع ، أولذى دم موجع (باهظ) » .

فهذا الحديث يعالج مشكلة السائل المحتاج بالمعونة الوقتية المادية ، ولم يعالجها بالوعظ المجرد أو التنفير من المسألة ، فقد أخذ بيده فى حل مشكلة ألمت به وجاء يشكو منها ، يوجهه كى يحلها بنفسه وبطريقة ناجحة [1] .. هذا ولا تتعارض دعوة الإسلام للعمل مع دعوته للتوكل ، فالتوكل لاينافى اتخاذ الأسباب ، فشعار المؤمن التوكل فى الحياة ، يقول رسول الله ـ ﷺ ـ : « اعقلها وتوكل » [2] ، وكما يقولون : ابذر الحب وارج الثمر من الرب .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه .

* صور من العمل البيئى النافع :

١ - استزراع الأرض :

لقد حث الإسلام على الاستزراع والاستصلاح ، حتى ولو فى آخر لحظات العمر ، يقول رسول الله ـ ﷺ ـ : «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فَسِيلَة ، فإن استطاع ألاَّ يقوم حتى يغرسها فليغرسها » [١] .

ويقول أيضاً : «من كانت له أرض فليزرعها فإن لم يزرعها فَلْيُزْرِعْهَا أخاه»[٢] ولقد فهم الصحابة مغزى هذا التوجيه الكريم ، وطبقوه فى حياتهم العملية بكل إخلاص طمعاً فى ثواب الله ، وعمارة للأرض ، ورخاء للإنسانية ، فقد غرس الصحابىُّ أبو الدرداء شجرة جوز ، وهوشيخ طاعن فى السن ، فسأله .أحدهم : أتغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير وهى لا تثمر إلاَّ بعدكذا وكذا من السنين ؟ فأجابه أبو الدرداء : وماذا علىَّ أن يكون لى ثوابها ولغيرى ثمرتها؟ :

وكان شعارهم : غرس لنا مَنْ قبلنا فأَكَلْنا ، ونحن نغرْس ليأكل مَنْ بعدنا.

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«من أحيا أرضاً ميتة فهى له» [٣] ، ويقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه :«لا تهتكوا وجه الأرض فإن شحمتها فى وجهها» ، وفى هذا إشارة إلى عدم

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد والترمذى .

تجريف الأرض الزراعية ؛ لأن أخذ الطبقة السطحية ضار بالتربة ومُجْهِدُ لها .

وقد حفلت السنة بالأحاديث الصحيحة التى تَحُضُّ على الزرع والغرس ونحن نجتزئ منها بهذا الحديث ، يقول رسول الله ـ ﷺ : «مامن مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سُرق منه له صدقة ، وما أكل السبُع فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُه أحَد إلا كان له صدقة» (١) .

٢ - الرِّضَا بما قسم الله :

الرضا بما قسم الله أسلوب قيم من أساليب تعلُّم القناعة ، وهو وسيلة لشكر المنعم على ما أنعم ، فالإنسان على أى حال فاضل ومفضول ، سواء أكان ذلك فى أمور الدنيا أو أمور الدين ، فعلى العاقل أن ينظر فى أمور الدنيا إلى من هو أسفل منه (صاحب الحظ القليل) ، وينظر فى أمور الدين ومكارم الأخلاق إلى من فوقه (صاحب الحظ الكبير) ، بل إن ذلك يعتبر واجباً عليه؛ لأنه تنافس فى الخير وتسابق إلى الرفعة والرقى ، ففى الحديث : «رحم الله عبداً نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله وشكره ، ونظر فى دينه لِمَنْ فوقه فَجَدَّ واجتهد» .

وهذه طائفة من النصوص التى توضح لنا هذا المعنى :

* يقول الله تعالى :﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢) .

---

(١) رواه المسلم .

(٢) سورة النساء ، من الآية : ٣٢ .

* ويقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (١) .

وقد فَسَّر الإمام على الحياة الطيبة بالقناعة .

* عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « انظروا إلى مَنْ هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألاَّ تزدروا نعمة الله عليكم» متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، وفى رواية البخارى : «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّلَ عليه فى المال والْخَلْق فلينظر إلى من هو أسفل منه» .

* وعنه ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « تَعِسَ عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أُعْطِىَ رَضِىَ ، وإن لم يُعْطَ لم يَرْضَ » (٢) .

* وعنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «ليس الغِنىَ عن كثرة العَرَض ، وإنما الغِنىَ غنى النفس» (٣) .

٣ - الترشيد :

من المبادئ الأساسية الهامة التى يرتكز عليها المنهج الإيمانى فى استغلال مكونات البيئة والتعايش السلمى معها مبدأ الترشيد؛ فالترشيد للمسلم أسلوب حياة ، وليس ظاهرة مؤقتة ، ولاشعاراً يرفع عند حلول الأزمات المادية ، أوعند نقص الموارد الطبيعية كالماء وسائر الثروات ، كَرَدٍّ فعل لها ، حتى إذا ما انقشعت سحب هذه الأزمات ، وتبددت مخاوفها عاد الناس أدراجهم ،

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٩٧ .

(٢) رواه البخارى

(٣) متفق عليه .

ونكصوا على أعقابهم ، يَحْيَوْن سيرتهم الأولى ، إسرافاً وتبذيراً وإهداراً للموارد، كما أن الترشيد لا يعنى التقتير والبخل المذمومين، وإنما هو الاعتدال فى كل أمر وعلى أى حال ، ولا يقتصر هذا المبدأ على الأحياء ، بل إنه يمتد ليشمل أكفان الموتى مراعاة لحال الأحياء .

وعلى هذا المبدأ تتضافر النصوص وتتوافر ، مبينةً لنا أهمية الترشيد حتى مع وفرة الموارد ، معرضة بالتبديد والتبذير ، منفرة منه .

* **مظاهر الترشيد فى المنهج الايمانى :**

(أ) الترشيد فى الإنفاق :

يقول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً وقنَّعَهُ الله بما آتاه » (٢) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٣) .

(ب) الترشيد فى المطعم والمشرب :

يقول الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾(٤) .

---

(١) سورة الفرقان : ٦٧ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) سورة الإسراء : ٢٩ .

(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ٣١ .

ويقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (١) .

عن عبد الله بن مِحْصَن الأنصارى الخُطمى قال : قال رسول الله ـ ﷺ :

« من أصبح منكم آمناً فى سِرْبه ، مُعافًى فى جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها » (٢)

عن أبى كريمةَ المقدام بن مَعْديكرِب قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ماملأَ آدميٌّ وعاءً شرّاً من بطن ، بحسب ابن آدم أُكُلاَت يُـقمْنَ صُلْبَه ، فإن كان لا محالة ، فثُـلُثٌ لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه » (٣) .

(جـ) الترشيد فى استخدام الموارد الطبيعية :

ومن أبرز مظاهر الترشيد فى هذه الموارد الترشيد فى استخدام الماء ، فقد حرص الإسلام على ضرورة المحافظة على الماء كمّاً وكيفاً حتى لا تتعطَّل وظيفته ومهمته ، وبالتالى تتعطل الحياة ، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله مرَّ بسَعْدٍ وهو يتوضأ فقال : «لاتسرف» فقال : يارسول الله أَوَفِي الماء إسْراف؟ قال : « نعم ، وإن كنت على نهر » (٤)، وعن أُبَىّ بن كعب، أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « للوضوء شيطان يقال له الولهان ، فاتقوا وسواس الماء » (٥) .

---

(١) سورة التكاثر : ٨ .

(٢) رواه الترمذى وحسنه .

(٣) رواه الترمزى وحسنه .

(٤) رواه أحمد .

(٥) رواه الترمذى .

وعن أُم سعد قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يُجْزِئُ فى الوضوء مُدٌّ، وفى والغُسْل صاعٌ ، وسيأتى قوم يستقلون ذلك ، فأولئك خِلاَف أهل سنتى، والأخذ بسنتى فى حظيرة القدس ، منزِّه أهل الجنَّة » (١) .

عن جابر بن عبد الله قال : «يجزئ فى الوضوء المُدُّ (رطل وثلث رطل) ، ومن الغسل من الجنابة الصاع (أى خمسة أرطال وثلث رطل؛ لأن الصاع أربعة أمداد) ، فقال رجل : مايكفينى ، فغضب جابر حتى تَرَبَّدَ وجهه (تغيَّر إلى الغُبْرة) ثم قال : قد كفى مَنْ هو خيرُ منك وأكثر شعراً » رواه الأثرم فى سننه موقوفاً ، والإمام أحمد فى مسنده مرفوعاً ولفظه : «يجزئ من الغسل الصاع ومن الوضوء المد » .

(د) الترشيد فى الملابس :

يقول رسول الله ـ ﷺ ـ فيما رواه معاذ بن أنس : «من ترك اللباس تواضعاً لله ، وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يُخَيِّره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها » (٢) . والمراد ترك الملابس المحرمة كالحرير ، ويقول رسول الله ـ ﷺ :« إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (٣) . وهذا فى الملابس والحلى المشروعة ، ولا شك أن تحقيق التوازن بين هذين المطلبين ترك اللباس فى الحديث الأول ، ومحبة الله لظهور أثر النعمة على العبد ، وذلك باتخاد الزينة واللباس المباح ـ هو الترشيد والاعتدال، وعن حذيفة قال : «نهانا رسول الله أن نشرب فى آنية الذهب والفضة ،

---

(١) رواه أبو بكر عبد العزيز فى كتاب الشافى .

(٢) رواه الترمذى وحسَّنه .

(٣) رواه أحمد .

وأن نأكل فيها ، وعن لُبس الحرير والديباج ، وأن نجلس عليه » [1] .

(هـ) الترشيد فى العبادة :

وهذا يعنى الاقتصاد فيها مع إتمامها ، عن عائشة أن النبى ـ ﷺ ـ دخل عليها وعندها امرأة قال : «من هذه؟» قالت هذه فُلانَة تذكر من صلاتها ، قال : « مَهْ » ـ نهى وزجر ـ عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تَملُّوا » [2] . وكان أَحَبُّ الدين إليه ماداوم صاحبه عليه .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ : «هلك المتنطِّعُون » [3] . قالها ثلاثا ، والمتنطعون : المتشددون فى غير موضع التشدد .

وعن أبى هريرة أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إن الدين يُسْر، ولن يشاد الدين أحد إلاغلبه ، فَسدِّدوا وقارِبُوا وأبشروا ، واستعينوا بالغَدْوة والروحة وشىء من الدُّلجة » [4] .

(و) الترشيد فى أكفان الموتى :

عن على قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « لاتغَالُوا فى الكفن ، فإنه يُسْلَبُ سلباً سريعاً » [5] أى يبلى بسرعة .

وعن عائشة قالت : «كُفِّن رسول الله فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولِّية (اسم قرية فى اليمن تصنع هذه الثياب) ، من كُرْسف (قطن) ليس فيها

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه أبوبكر عبد العزيز فى كتاب الشافى .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الترمذى وحسنه .

(٥) رواه أبوداود .

قميص ولا عمامة » [1] .

وعن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم ، وكفّنوا فيها موتاكم » [2] .

٤ - انقياد الكون لأمر الله :

إن كل ما فى هذا الكون ، من عرشه إلى فرشه مخلوق لله ومربوب له ، ومنقاد وخاضع لأمره ، والحياة الإنسانية تسير وَفْق هذا النظام ، فمن سلك طريق التقوى وتزكية النفس وفقه الله للفلاح ، ومن سلك طريق الفجور والتردى كانت نتيجة عمله الخيبة والبوار ، يقول الله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [3] . ولكن كثيراً من الناس يسىء فهم هذه الحقيقة ، فَيخَيَّلُ إليهم أنهم قادرون على الخروج من هذا السَّنَن، ناسين أو متناسين أن الذى يختار أيّاً من الطريقين فلابد أن يخضع لقانونه ، وأن شرف الغاية لابد أن يسبقه نبل الوسيلة .

وحتى نتذكر ذلك جيداً فلنتدبر قول الله تعالى :

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البغوى فى المصابيح .

(٣) سورة الشمس : ٧- ١٠ .

بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] . فقدرة الله تعالى على منع هذه النعم وغيرها ـ عند جحودها ـ أيْسر عليه وأهون من منحها ، فالله وحده هو الخالق وهو الزارع ، وسائر النعم هى منه مَحْضُ فضل ، فهو وحده الزارع على الحقيقة ؛ لأنه هو الذى أوْدع فى البذرة قوانين الإنبات والنمو والإثمار ، فالجذير يتجه إلى أسفل (انتحاءً ضوئياً سالباً) ، والساق يتجه إلى أعلى (انتحاء ضوئيا موجبا) ، ويحصل هذا النبات على غذائه من الماء والعناصر الأخرى ، ثم يقوم بتحويل كل هذا إلى صور أخرى نافعة ومفيدة للإنسان أوالحيوان : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾[2] .

ومارأينا هذه النبتة الصغيرة تمردت يوماً على قانون خالقها ، فاتجه الجذير إلى أعلى ، ولااتجه ساقها إلى أسفل ، ولوحدث هذا لأَضْحَى وجه الأرض قاحِلاً ماحِلاً ، ولكن الإنسان هو الذى دأب على التمرد ، يعيث فى الأرض .

---

(١) سورة الواقعة : ٥٧ ـ ٧٤ .

(٢) سورة المؤمنون : ٢٠ .

فساداً ، يطغى إذا استغنى ، يظلم القوى الضعيف ، لا يعتبر الغنى بحال الفقير.. !!

إنَّ علماء الحضارة والاجتماع يرون أنه لاسبيل للنجاة من المصير المشئوم إلابِرِدَّة روحية ، وتشبث بالقيم الأخلاقية ، واسترداد للمناهج الدينية المتدهورة، بحيث يعود للإنسان توازنه الطبيعى بعد اختلاله لقرون طويلة من تأثير المادة ، كما يجب التمسك والاستعانة بالتقاليد الدينية التى تتضمن الإرشادات الأخلاقية لحماية البيئة ، بل لحماية البشرية ، وهذا مايقرره المنهج الذى سبق أن أوضحنا بنوده لتكون نبراساً للسالكين .

(جـ) معونة الله تأتى عند الالتزام بمنهجه :

• حلول البركة فى الأرزاق والأقوات والآجال :

إذا أخذ الإنسان بالأسباب المشروعة ،وتوكل على الله حق التوكل ؛ فإن معونة الله تأتيه فى صُوَرٍ شتَّى ، من أجلّها وأهمها البركة ، التى إذا حلَّت فى الأرزاق والأقوات والآجال أكْسَبَتْها النفعَ العظيم والخير العميم ، فيأتيه الرزق من حيث لا يَحْتسب ، ويسخر الله له كل شىء ، وما يصدق فى هذا الشأن على الفرد يصدق على المجتمع ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (١) .

ويقول عز من قائل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الطلاق : آخر الآية الثانية ، وبعده الآية الثالثة .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٩٦ .

ويقول : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

والله يضرب المثل التوضيحيَّ لذلك فيقول : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢)، ويقول رسول الله ـ ﷺ ـ فيما رواه عنه عمر بن الخطاب : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطيرَ تغدو خماصاً وتروحُ بطاناً » (٣) ، ويقول عمر : بين العبد ورزقه حجاب ، فإن قنع ورضيت نفسه آتاه اللهُ رزقَه ، وإن اقْتَحَمَ وهتك الحجاب لم يزد فوق رزقه .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم » (٤) ، عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من أحبَّ أن يُبْسَطَ له فى رزقه ، وينسأ له فى أَثَرِه فَلْيصِلْ رحمه » (٥) .

وسيرة النبى ـ ﷺ ـ حافلةٌ بألوان من معونة الله له ومن البركة ، هى بالنسبة له معجزات ، ولغيره من عباد الله الصالحين كرامات ، كتكْثِير الطعام والشراب حتى يكفى القليل منه الجمعَ الغفير ، فمن أراد المزيد فليراجع كتب السيرة والحديث ، ومن أروع ما تطالعنا به كتب الحديث فى هذا

---

(١) سورة الأعراف : ٥٨

(٢) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٣) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح .

(٤) أخرجه الديلمى من حديث عمر بن راشد بسنده عن أبى هريرة مرفوعاً به ، وابن راشد ضعيف جداً، وقال البيهقى هذا حديث ضعيف فى مرة .

(٥) متفق عليه .

الشأن تلك القصة الطريفة :

عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ قال : «بَيْنَما رجل يمشى بِفَلاَةٍ من الأرض ، فَسَمِعَ صوتاً فى سحابة : اسْقِ حديقة فلان ، فَتَنَحَّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حَرَّةٍ (أرض مُلْبَسَة حجارةً سوداء) ، فإذا شَرْجَةٌ (مَسيل ماء) من تلك الشِّرَاج قد استوعبت ذلك الماء كلَّه ، فَتَتَبَّعَ الماءَ، فإذ رجلٌ قائم فى حديقته يُحَوِّل الماءَ بِمِسحاته ، فقال له : ياعبدالله ما اسمك؟ قال : فلاَن للاسم الذى سمع فى السحابة ، فقال له : ياعبدالله لم تسألنى عن اسمى ؟ فقال : إنى سمعت صوتاً فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول : اسْقِ حديقة فلان لِاسْمِك ، فَمَا تَصْنَعُ فيها ؟ فقال : أمَا إذ قلتَ هذا، فإنى أنظر إلى مايخرج منها ، فأتَصَدَّقُ بثلثه ، وآكلُ أنا وعيالى ثُلُثاً ، وأُرُدُّ فيها ثلثه » (١) .

فنحن نرى من سياق هذا الحديث أن ذلك الرجل كان يأخذ بالأسباب فى تحصيل رزقه ورزق أولاده، فيعمل فى حديقته بجد ونشاط ،وكانت خطته فى التصرف فى محصول البستان أن يقسمه أثلاثاً ، فَثُلُثٌ يتصدق به ، وثلث لإصلاح البستان وترميمه ، وثلث لقُوته وقُوت عياله ، فببركة هذا التصرف ا لحكيم يسر الله له أسباب البركة ، وقد تمثلتْ فى توجيه السحاب الذى يحمل الأمطار ليُلقى بحُمولته من الماء العذب على هذه الأرض فتحيا وينْبُتُ الزرع ، ويأخذ الرجل أضعاف ما أخرج فى سبيل الله من صدقة.

---

(١) متفق عليه .

تلك قصة من قصص النبوة تلقاَّها المسلمون الأولون بالقبول الحسن ، وعملوا بمقتضاهَا ، فقد تثبتوا منها لأنها صدرت عن الصادق الأمين ـ ﷺ ، فماذا فعل مادّيوُّ العصر الحديث ؟ لكى نعرف ذلك فإن الشيخ محمد الغزالى يَصْحَبُنا فى سِفْره الجليل «مع الله» فيقول لنا : لا بد من استجماع الأسباب المادية إلى جانب ذكر الله ، فأما اعتماد الغربيين على المادة بعيداً عن الخالق الأعلى ، واعتماد الشرقيين على الله مهملين أسبابه التى مهَّدها ، فذلك شرود عن الصواب ، والإسلام يقوم برعاية الحق من جميع وجوهه ، وتلك هى أوامر الله التى يجب تنفيذها ، ولاخيرَ فى الناس ولابركة فى الدنيا إلا إذا قويت الصلة بالله ، واحتُرِمت السنن التى وضعها ...

قال الأستاذ الصاوى فى إحدى كلماته «ما قل ودل» : « العلم لا يكفى، بل لابدَّ من الإيمان » . لقد تعلمنا فى صغرِنا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأنها الأساس الطيب لكل ما فى الدنيا من خير ، ومافى الآخرة من رحمة ، ولكن ها هوذا العلم الحديث نفسه يشهد اليوم أن الصلاة كالماء العذب تجعل النبات ينمو ويزدهر إذا ماصلى الزارع له ..!!

أما إذا تركه وشأنه فإن البذرة فى الأرض قد تتعفن ، وتفسد ، ولاترى نور الشمس ، أو تخرج ثم يَذْوَى نبتُها ويَذْبُل !! هذه هى الحقيقة التى أسفرت عنها التجربة فى بعض المعامل الأمريكية فى « لوس أنجلوس » .

ولعلها تردع العلماء الذين يؤمنون بالعلم وحده ، والذين ينكرون أن للرُّوح تأثيرها الساحر فى الكائنات ، وأن خيرَ الزاد التقوى ، كما قال الله ـ جل شأنه .

فمنذ عام ١٩٥٢م وهم يُجْرون فى مؤسسة البحث الدينى شتى التجارب للتدليل على قوة الإيمان تدليلاً عملياً ... فإذا كنا نستطيع أن ننقل أفكارنا من رأسِ بشر إلى رأسِ آخرَ .. أفَلاَ يمكن أن نُلْقى إشعاعات الفكر على شكل صلاة ودعاء ونداء ؟! وهل تؤدى الابتهالات التقية فى عالمنا الذى يجرى وراء المادة الخسيسة ويكاد يكفر بكل ماعداها إلى هذه النتائج العظيمة ؟!

لقد وضعوا فى أحواض الزرع حبوباً صلَّوْا لها وباركوها ، ثم وضعوا حبوباً فى أحواض أخرى بلا صلاة ولا دعاء ، فنبتت الأولى نباتاً حسناً ، ونمت الأخرى فى فقر وجدب ... سبحانك ربى ، إنك أنت الزارع الأكبر، وماكنا نحن الزارعين ! أقول : وهذا الكلام كذلك يمثل جوانب من الحق ، ونخشى أن يحيف على الجانب المهم ، وأن يتخذ منه الماديون مجالا لسخريتهم.

إن لإسلام مادى روحى ، أو هو ـ كما قررنا ـ الفطرة كاملة ، ولما كان أىُّ عمل يحتاج فى تمامه إلى جملة أسباب : بعضها فى أيدينا ، وبعضها موكول إلى الله ، فيجب أن نعلم أن الله لن يقوم عنا بما وَكَلَ إلينا فعْله ، وفى حالة الزرع هذه لا بد أن نبذرَ ونحرث ونسقى ، وعلى الله بعد ذلك أن يمنع الآفات المفاجئة ، وأن يهيئ الجوَّ بما يُيَسِّر الإنضاج وأن يتعهد بلطفه ماصنعناه .

وفى الحالات الأخيرة تجدى الصلوات والابتهالات ، وتُرْتَقَبُ بعد ذلك البركات ، وحاجة العالم إلى معرفة هذا الجانب لا بدَّ منها .. وهو مايحجده

الماديون ، ويؤكده المؤمنون [1] .

(د) من صور تطبيق هذا المنهج :

رأينا صوراً مشرقة ، وأعْصُراً رائقة ، التزم فيها المسلمون منهج الله الشامل ، فعرف كل واحد واجبه فقام به خير قيام ، ولم يطلب أزيد من حقه ، فكانوا بحق وصدق فى جبين الدهر شامة ، وكانوا للناس رادة وللدينا قادة ، وصدق عليهم قول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [2] ، ونذكر النفس قبل الغير بما أفاء الله على الأمة الإسلامية من غنى كان مضرب المثل يومَ أن استُغلَّت كل الموارد البيئية والطاقات الإنسانية الاستغلال الأمثل فى ظل عقيدة الإسلام السمحة ، التى أخرجت الناس من عبودية البشر إلى شرف عبودية الله الذى بيده تصاريف القدر ، وأزف إليك ـ أخى القارئ ـ صوراً من هذه البشريات السارة التى تحققت على أرض واقع الأمة الإسلامية :

١ – بين معاذ وعمر بن الخطاب :

روى أبو عبيد قال : «إن معاذ بن جبل لم يزل بالجند إذ بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى اليمن ، حتى مات النبى وأبو بكر ، ثم قدم عمر ، فرده على

---

(١) انظر مع الله ، جـ١ ،ص ٢٦–٢٨ .

(٢) سورة النور : ٥٥ .

ماكان عليه ، فبعث إليه معاذ بثلث صدقة الناس ، فأنكر ذلك عمر وقال: لم أبعثك جَابياً ولاآخذ جزية ، ولكن بعثتـك لتأخذ مـن أغنياء الناس فتردها على فقرائهم !! فقال معاذ : مابعثت إليك بشيء وأنا أجد أحداً يأخذه منى ، فلما كان العام الثانى بعث إليه شَطْر الصدقة (نصفها) ، فتراجَعا بمثل ذلك ، فلما كان العام الثالث بعث إليه بهاكاملة ، فراجعه عمر بمثل ماراجعه قبل ذلك ، فقال معاذ : ما وجدت أحداً يأخذ منى شيئا » [١] .

٢ – عمر بن عبد العزيز ورخاء المسلمين فى عهده :

لقد بلغت سعة النعمة وكثرة الطيبات فى عهد خامس الراشدين عمر ابن عبد العزيز – رضى الله عنه – مبلغاً عظيماً ، علماً بأن خلافته لم تدم أكثر من ثلاثين شهراً ، حتى رأينا عامله على البصرة يكتب إليه ويقول : « إنه قد أصاب الناسَ من الخير خيْرٌ؛ حتى خَشيتُ أن يبطروا » . فكتب إليه عمر: إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل الجنة الجنةَ ، وأهل النارالنارَ ، رضى من من أهل الجنة بأن قالوا ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [٢] .

فَمُرْ الناسَ قِبَلَكَ (عندك) أن يحمدوا الله [٣] .

ومن صور هذه النعمة فى عهده :

* إنشاء بنوك التسليف الزراعى :

روى أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن – وهو بالعراق «أن أخْرِج للناس أُعطياتهم (رواتبهم الدورية) ، فكتب

---

(١) انظر مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام : ص ١٥٣ .

(٢) سورة الزمر : جزء من الآية رقم ٧٤ .

(٣) مشكلة الفقر ، مرجع سابق ص ١٥٢

إليه عبد الحميد : إنى قد أخرجت للناس أعطياتهم ، وقد بقى فى بيت المال مال (فائض فى الخزانة) ، فكتب إليه : أن انْظُرْ كلَّ من ادَّان فى غير سفه ولاسَرَف فاقضِ عنه ، فكتب إليه : إنى قد قضيت عنهم وبقى فى بيت المال مال ، فكتب إليه : أن انْظُر كلَّ بِكْر (أعزب) ليس له مال ، فشاء أن تزوجه فزَوِّجْه ، وأَصدق عنه (ادفع له المَهْر) ، فكتب إليه : إنى قد زوجتُ كلَّ من وجدت ، وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال ، فكتب إليه : أن انظر كلَّ من كانت عليه جِزْيَةٌ (خراج) فَضَعُفَ عن أَرْضِه فأَسْلِفْهُ مايقوى به على أَرْضِه ، فإنا لا نُرِيدهم لعام ولا عامين » .

وهكذا بلغ الرخاء والغنى ـ فى ظل عدل الإسلام ـ حدّاً استطاع معه كل ذى حق أن يحصل على حقه من خزانة الدولة بلا تظلم ولا طلب أو شكوى ، فقضيت الديون ، وتزوج غير القادرين على تكاليف الزواج ، ووجه الفائض إلى التنمية الزراعية ، والعمل على رفع مستوى الإنتاج بتسليف صغار الزراع من خزانة الدولة ما يعينهم على تحسين أرضهم وزراعتها ، حدث هذا قبل أن تعرف الدنيا بنوك التسليف الزراعى بمئات السنين ؛ ذلك لأن ابن عبد العزيز وأمثاله لم يدرسوا الاقتصاد على أيدى المستشرقين ولا المستغربين ، وإنما درسوا الاقتصاد الإسلامى فى صورة مبسطة لا تشوبها النظريات الجدلية العقيمة، وأُشْرِبت قلوبهم أنه لا جدوى من دراسة الجدوى إلا فى رحاب المنهج الأجدى ، وقد فَطِنَ عمر أيضاً أن حسن استغلال الموارد ليس قوةً لأصحابها فحَسْب ، بل هو قوة للدولة أيضاً ، وأن على الدولة قبل أن تَبْحَثَ عن حقها فى الضرائب التى تحصلها من ثروات الممولين ، عليها أن تتذكر

واجبها فى معونتهم وإمدادهم بما يَقْوُون به على أداء واجباتهم المالية بِيُسرْ وانتظام .

* امتداد الرخاء إلى القارة السوداء (إفريقيا) :

لم يكن هذا الغنى والرخاء والسعة فى آسيا وحدها ، وإنما امتد إلى الأرض التى أشرق فيها نور الإسلام ، فى إفريقيا ، قال يحيى بن سعيد : «بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقيا ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد فقيراً ، ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناسَ ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم » (١) .

إذا عجبت الدنيا عند سماع هذه الأخبار التى تكاد تبلغُ حد الخيال ؛ فنحن لا نعجب وإنما نفخر ، فقد صدقت نبوءة رسولنا الكريم ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « لاتقوم الساعة حتى يكثرفيكم المال فَيَفيض ؛ حتى يَهم رَبُّ المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرض عليه : لاأَرَبَ لى » (٢) .

ولم يطل الزمن كثيراً حتى أدرك الناس هذا الغِنَى ، وماعودتُهُ على الله ببعيد ...

وأخيرا وليس بآخِر ... هَلاَّ من لمحة إيمانية يُشْرق على النفوس الحَيْرَى سناها ؟ فتُصْغى لقول الحق سبحانه : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن

---

(١) المراجع السابق .

(٢) فتح البارى حـ ٣ ص ١٨١ .

زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (١) .

أوهَلاً من شَذْرة فوَّاحة تستنشق النفوس المكدودة المجهودة عطرها وشذاها؟ وهلا توحَّدت صفوف المستضعفين قَبْلَ أن تثورَ عليهم البيئة فتصليهم بلظاها، مُرَدِّدة فى سمع الزمان وبصره : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ (٢) ؟

ويرحم الله شوقِيّاً يوم أن قال :

فَقُلْ ربِّ وفِّق لِلْعَظَائم أُمَّتِى وزَيِّنْ لها الأفْعَالَ والعَزَمَاتِ

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الشمس :٥-١٠ .

(٢) سورة لقمان ، من الآية : ١١ .

قائمة المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ صفوة التفاسير : محمد على الصابونى ، دارالقرآن الكريم ١٩٨١م .

٣ ـ تفسير القرطبى .

٤ ـ المنتخب فى تفسير القرآن الكريم : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ١٠ عام ١٩٨٤م .

٥ ـ رياض الصالحين : للإمام النووى ، دار المأمون للتراث ١٩٨٢ م .

٦ ـ تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث : لابن الديبغ الشيبانى ، ط صبيح ١٩٦٣م .

٧ ـ الأربعين حديثا النووية مع شرحها : تحقيق وتخريج أحمد عبد الله باجور. الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٢م .

٨ ـ القصص الصحيح فى السنة النبوية : دراسة تحليلية وتربوية ، د. طلعت محمد عفيفى سالم ، الزهراء للإعلام ١٩٨٨م .

٩ـ صفوة الفقه النبوى فى الطهارة والصلاة : أنور على عاشور ، البشير ، ط ٥ ـ عام ١٩٨٨م .

١٠ – مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام : د . يوسف القرضاوى ، مكتبة وهبة ١٩٦٦م .

١١ – العقائد الإسلامية : الشيخ سيد سابق .

١٢ – مع الله ، الشيخ محمد الغزالى ، ط مكتبة أخبار اليوم الإسلامية ١٩٩٢م .

١٣ ـ علم بيئة الحشرات : د . عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدى ، مؤسسة سعد للطباعة ١٩٨٠م .

١٤ ـ الإسلام والبيئة : عبد الواحد إسماعيل القاضى ، دار الاعتصام ١٩٩١م .

١٥ ـ التلوث : (دوبرت لافون جرامون) ، ترجمة : نادية القبانى ، توزيع الأهرام ١٩٧٧م .

١٦ ـ من أجل وعى بيئى خليجى : د . إسماعيل محمد المدنى ، وزارة الإعلام ، البحرين .

١٧ – الحشرات الناقلة للأمراض : د . جليل أبو الحب ، عالم المعرفة ٥٤ .

١٨ – منهج العاملين فى الدعوة : د . محمد زين الهادى ، مركز الكتاب للنشر ـ القاهرة .

١٩ – سيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابن هشام .

ـ مجلة الشباب : العدد ١٧٩ يونيو ١٩٩٢ .

ـ مجلة العربى : أعداد ٤٠٢ و٤٠٣ و٤٠٤ و٤٠٥ لعام ١٩٩٢م .

ـ عالم الفكر : المجلد الثانى . ١٩٨٢ .

ـ جريدة الراية القطرية فى ١٩٩٢/٦/١٦ .

ـ علم البيئة النباتية : د . أحمد مجاهد وآخرين ، الرياض ١٤٠٨هـ .

ـ صحيفة الأهرام بتاريخ ١٦ مارس ١٩٨٠ .

ـ نسيج الحياة قصة حياتنا المتطورة : جوزيف وودكراتش ، ترجمة الدكتور مصطفى عبد العزيز ، دار القلم ١٩٦٥م .